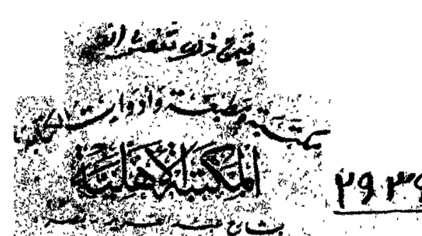




ذات الزهرة البيضاء



LA DAME AUX CAMÉLIAS



ذات الزهرة البيضاء

أو

لادام او كامليا

تأليف

اسكندر دوماس الاصغر

وتعريب

طانيوس عبده
محرر جريدتي لسان الحال والولاية الرسمية في بيروت

المقدمة

الاختراع والتأليف هبة من هبات الله ينعم بها على من شاء من عباده

وهى لا تهتم فى الأدمغة إلا بعد الحنكة وطول الاختبار فلا بد لمن أراد أن يخترع حادثة بشرية أن يكون قد درس طبائع البشر واختبر أخلاقهم وسبر غور قلوبهم. اوكان اقدامه على هذا الشأن الخطير ضرباً من ضروب العبث

أما أنا فلا أزال فى مقتبل الشباب وما آن لى أن اجرب اخلاق الناس واتقب عما انطوت عليه نياتهم فلا أجسر على الاختراع

وانما أقص على القراء حكاية جرت وحادثة لا شك فى صحتها فان كل أصحابها لا يزالون احياء يرزقون ماخلا صاحبة هذه السيرة فيكون شأنى شأن المصور الشمسى بنقل الرسوم فتخرج كما هى على علاتها

وان تقال هذه الرواية كما اتفقت فكل ما فيها حقيقة ثابتة لا ريب فيها

وفوق ذلك فقد يوجد في باريس كثيرون ممن شهدوا حوادثها بأنفسهم فيمكنهم ان يخبروا بشيء من ذلك فيما فوق

غير اني انا وحدى الذى يستطيع كتابة هذه الرواية لاني انا وحدى الذى رويت لى تفاصيلها الاخيرة ولولا ذلك لما تيسر اظهارها الى عالم الوجود

والآن فليعلم القراء كيف اتصلت بى هذه الماجريات فأقول :

١

فى اليوم الثانى عشر من شهر مارس سنة ١٨٤٧ قرأت إعلانا اصفر كان ملصقا على جدار فى شارع لافيت اعلن فيه بحروف ضخمة عن بيع اثاث منزل وامتعة نادرة

وهذا البيع سيجرى لموت صاحب الاثاث

ولم يذكر فى الاعلان اسم الميت ولكنهم ذكروا فيه انه سيجرى فى شارع انتين نمرة ٩ وذلك فى اليوم السادس عشر من شهر مارس فيبدأ عند الظهر وينتهى فى الساعة الخامسة بعده

وقد كنت ولا ازال من طلاب تلك الامتعة النادرة فآليت على نفسى ان اغتنم هذه الفرصة واحضر الى هذا المزاد اذا لم يكن للشراء فللفرجة .

وفى اليوم التالى ذهبت الى ذلك المنزل مبكراً فوجدت بالرغم عن تبكيرى كثيراً من مركبات الاغنياء واهل النبل عند الباب ودخلت فوجدت جماً غفيراً وفيهم السيدات

النبيلات اللواتى كن يرفلن بلد نفس والحرير وعلائم الدهشة بادية فى عيونهن فقد كن ينذهلن لكل ما يبدو من تلك الأمتعة لتلك العيون

وقد عرفت بعد ذلك اسباب هذا الدهش حين دخلت الى الغرفة التى كن فيها فقد كانت غرفة فتاة من بنات الهوى

ومن عجائب تلك المرأة الشريفة انها تتوق الى رؤية كل ما تتزين به بنات الغواية اللواتى يفتن أزواجهن واخوتهن بملابسهن المدهشة واذواقهن البديعة وحليهن التى لا يوجد منها عند الشريفات

اما هذه الفتاة التى دخلت الى غرفتها فهى الميتة صاحبة الأثاث الذى كان معروضاً للبيع

وكان يحق للشريفات ان يدخلن الى تلك الغرفة فان الموت ستار العيوب قد طهر هواءها

وفوق ذلك فقد كان عذرهن فى هذه الزيارة « اذا احتجن الى الاعتذار » انهن جئن الى منزل يباع رياشه دون ان يعرف اسم صاحبه فانهن قرأن فى ذلك الاعلان ان الامتعة ستعرض قبل بيعها فأردن ان يفحصنها قبل

الاقدام على شرائها

وهو عـذر واضح كما ترى غير انهن ما أتين لأجل الشراء وما اتين وهن يجهلن اسم صاحبة هذا المنزل بل جئن ليقفن على اثر حياة ذات الفتاة التى كانت حكاياتها سمر النوادى فى حلقات المتحدثين وهن يعرفن امرها حق العرفان ومع ذلك فلم يقفن من تلك الآثار الا على ما عرض للبيع بعد الوفاة ولو رأين شيئاً مما بيع وهى فى قيد الحياة لكانت دهشتهن اعظم واعجابهن اشد

على ان ذلك لا يدل على ان ما بقى لم يكن شيئا مذكوراً بالقياس الى ما ذهب فقد كان يوجد فى ذلك المعرض انفس الاثاث من خزائن ومناضد من خشب الورد وآنيات من خزف العين وتماثيل من ساكس الى غير ذلك من كل ما يستوقف الابصار ويدل على سلامة ذوق من اقتناه

أما انا فانى جعلت اقفو أثر هؤلاء السيدات واتبعهن أين ذهبن الى ان دخلن الى غرفة فأقمن فيها ردحاً من الزمن ثم خرجن وهن يتبسمن وقد احمرت وجوههن كأنهن

خجلن مما رأينه

فدخلت فى أثر انصرافهن فعلمت ان هذه الغرفة التى خرجن منها نما كانت الغرفة الخاصة بزينة الفتاة فقد وجدت فيها منضدة من ابدع ما رأته العيون مسندة الى الجدار يبلغ طولها ست اقدام وعرضها ثلاث

وقد صفت فوقها أدوات الزينة على اختلافها وكلها من الذهب أو الفضة بحيث لم يكن ينقص شيء من تلك الأدوات

وكان يظهر لمن يقابل هذه الأدوات النفيسة انها لم تكن من مصدر واحد وانها لم تصل اليها من عشيق فرد

وقد جعلت اتمعن فى هذه الاشياء الجميلة وافحصها الفحص المدقق فرأيت على بعضها أشائر كونتية وباريزيات وغيرها من طبقات النبلاء فقلت فى نفسى :

لا شك أن الله قد أشفق على هذه الفتاة المنكودة فأماتها وهى فى أبان جمالها وريعان شبابها قبل أن تصل إلى سن اليأس وهو أول موت تموت به أولئك الغوانى

والحق ان لا شيء اقتل للغانيات من ذهاب الصبي

ولا سيما أولئك اللواتي يبعن انفسهن بيع السلع فاذا ذهبت دولة الجمال بارت السلعة وأصبحت تلك التي كانت تزدان بها محافل أهل الفجور محتقرة ذليلة لا مقام لها ولا شأن حتى عند أهل الفجور أنفسهم

ولذلك فان من رضي الله عنها من أولئك الفاتنات أماتها وهي في نضارة حياتها ولم يذقها مرارة تلك الكأس حين تبيض الشعور

ولنعد الى ما كنا في صدده فاني أطلت مكثي في تلك الغرفة التي لم يكن فيها أحد سواي مع حارس بابها الذي كان لا ينقطع عن مراقبتي كأنه كان يخاف أن أسرق شيئاً من تلك الأمتعة

وقد دنوت من ذلك الحارس اشفاقا عليه لما رأيت من ظواهر قلقه وقلت له :

هل لك يا سيدي أن تخبرني باسم صاحبة هذا المنزل

قال : انها مرغريت غوتييه

وكنت اعرف هذه الفتاة فذهلت لما سمعت وقلت بلهجة المأخوذ :

كيف ذلك أهي مرغرت نفسها اتى ات

— نعم يا سيدى

— متى كانت وفاتها

— منذ ثلاثة اسابيع

— ولماذا عرضوا اثاث منزلها

— لان الدائنين معتقدون ان عرض الامتعة قبل بيعها يرفع اثمانها

— اذن لقد كانت مدينة

— نعم يا سيدى بمبالغ جسيمة

— ولكن ثمن الاثاث يفى الدين فيما اظن

— دون شك ويزيد

— الى من تعود هذه الزيادة

— الى اهلها

— ألها أهل

— نعم كما يظن

وعند ذلك شكرت الحارس وانصرفت عائداً الى منزلى وانا مشفق على تلك الفتاة المنكودة كل الاشفاق

فقد كنت اعتقد انها ماتت حزينة منكسرة القلب فانها كانت مريضة ولا اصدقاء لبنات الهوى الا اذا كن في اتم عافية

وقد كان استفاز غايها بالوث تني وهو قول قد يجده القارىء تافها ولكني اشفق على اولئك الفتيات اشفاقا عظيمًا لا حد له حتى اني لا اقبل المجادلة في هذا الشأن

ولقد اتفق لي مرة اني كنت ذاهبا الى مركز البوليس لأحد الشؤون فلقيت في احد الشوارع فتاة يقودها جنديان ولم اكن أعلم ذنبها بل كل ما أعلمه انها كانت تبكي بدموع غزيرة وهي تعانق طفلا أرادوا فصله عنها بعد القبض عليها

ومن ذلك الحين لم أعد احتقر امرأة لأول وهلة مهما كان من شأنها ومهما توغلت في النزول الى الحضيض

٢

لقد كانت مرغريت غوتيه بارعة فى الجمال شهيرة فى باريس ولكن بقدر ما يشتهر أمثالها فى الحياة يكون خمولها بعد الوفاة فهى من تلك الكواكب التى تختفى دون أن يكترث لاختفائها أحد

واذا اتفق لها أن تموت فى ريعان الصبى كما ماتت مرغريت تباحث عشاق الغوانى بأمرها فان عشاق هؤلاء الفتيات يعيشون على مودة وصفاء ثم يذكرون شيئا من حوادث الفقيدة دون أن يبذلوا دمعة لفقدها

أما أنا فان هذا الاشفاق الطبيعى الذى أشرت اليه منذ هنيهة دعانى الى التفكر مليا بمرغريت فتذكرت انى لقيتها مراراً فى الشانزليزه إذ كانت تأتى الى هذا المتنزه فى كل يوم

وكانت تركب مركبة جميلة زرقاء يجرها جوادان من كرام الخيل فكان كل من يراها يرى لأول وهلة انها تمتاز

على اترابها بوزانتها التى كانت تزيدها جمالا

وان من عادة هؤلاء الفتيات انهن حين يخرجن للنزهة يصحبن معهن الخادمات أو العجائز لقضاء اغراضهن

خلافًا لمرغريت فانها كانت تصل إلى المنتزه وحدها لا يصحبها احد

وكانت فى الشتاء تلبس الكشمير وفى الصيف تلبس ثوبًا بسيطا وهى تلتقى عادة بكثيرين من الذين يعرفونها فاذا ابتسمت لواحد منهم لا يرى ابتسامتها سواه كأنها دوقة تخاف الرقباء

ولم تكن تطوف فى ذلك المنتزه كما تطوف الغانيات أمثالها بل كانت مركبتها تسير بها مسرعة الى الغابات

وهناك توقفها فتخرج منها وتتنزه ماشية نحو ساعة ثم تعود إلى مركبتها فتعود بها مسرعة كما أتت

فكانت على جانب عظيم من الجمال فهى رشيقة القد نحيلة الأعضاء ماهرة فى صناعة ملابسها واصلاح ما اغفلته الطبيعة من المحاسن

ناهيك عن ملابسها التى بلغت برشاقتها غاية الغايات

على ما اشتهرت به من انبساط

وكانت عيناها سوداوين ولها حاجبان كقوسين وهدبان ذا انضباط رسمه فلا فوق وجنتيها الورديتين وأنف دقيق وفم جميل ينفتح عن أسنان بيضاء كالحليب وبشرة ناعمة كالمخمل وشعر أسود كانت ترسله على كتفيها فيغطيهما ولا يظهر من أذنيها غير قرطين من الماس كانا يتوهجان في ظلام شعرها الحالك كما تتوهج الكواكب في السماء حتى لقد كان يقال ان ثمن هذين القرطين عشرة الاف فرنك

وكان من عادتها ان تذهب في كل ليلة إلى الملاعب فلا تفوتها رواية وكل ما اتفق انهم مثلوا رواية جديدة في أي ملعب كان كانوا على ثقة من حضورها حتى لقد كانوا يحفظون لها لوجا دون طلب وما ذلك الا لفرط ثقتهم من حضورها

ثم انه كان من عادتها أن تحضر الى الملعب ومعها ثلاثة أشياء لا تفارقها أحدها النظارة وهي من ألطف أنواع العاج والثاني كيس مملوء من الحلوى والثالث باقة من زهر الكاميليا

ومن عجيب أمرها انها لم تكن تتزين بغير هذا النوع من الزهر حتى لقبوها به فصاروا يدعونها لادام دي كاميليا

على ان الاعجب من ذلك انها تتزين بالنوع الابيض منه خمسة وعشرين يوما متصلة فى كل شهر وفى الايام الخمسة الباقية منه تجعل أبيضه أحمر فلم يعلم أحد سبب هذا التغيير المطارد فى الألوان حتى أصحابها الأخصاء

ومما عرفته من أمرها انها كانت فى بدء عهدها تهوى ظرفاء الفتيان وتفاخر بهواهم كما انهم كانوا يفاخرون بحبها

ولكنها منذ ثلاثة أعوام اعتزلت أولئك الفتيان كما يقولون ولم يكن يصحبها غير دوق شيخ غريب من كبار الاغنياء كان يحاول اثناءها عن العيش القديم وهى توافقه على ما كان يريده بملء الرضى

فمما ذكروه من حكاية هذا الدوق ان مرغريت أصيبت بضعف شديد فى ربيع سنة ١٨٤٢ ووصف لها أطباؤها الاغتسال بالمياه المعدنية فسافرت الى بانير

وكان يوجد بين المرضى هناك ابنة ذلك الدوق وهى مصابة بمرض مرغريت نفسه

ثم انها كانت تشبهها كل الشبه حتى لقد يقال انهما أختان وهنا ينتهى الشبه بينهما

غير ان الدوقة الصبية كانت فى الدرجة الثالثة من السل الرئوى فلم تكن غير أيام قليلة بعد قدوم مرغريت حتى ماتت الفتاة فكان حزن أبيها الدوق لا يوصف

وقد اتى الدوق بعد وفاة ابنته الى بانير غانير فى صباح يوم فرأى مرغريت فخيل له انه رأى خيال ابنته فمشى اليها وأخذ يدها بين يديه فلثمها باحترام والتمس منها دون ان يسألها من هى أن تأذن له ان يراها وان يجد بها صورة بنته الميتة

وكانت مرغريت وحدها هناك لا يصحبها غير خادمة غرفتها ولا تخشى قدوم عشاقها فأجابت الدوق إلى ما طلب

وقد اتفق وجود اناس فى تلك المدينة اخبروا الدوق بما يعرفونه من أمر مرغريت

فوقع هذا النبأ وقعا شديداً عليه ولكنه جاء بعد فوات الاوان فقد ملأت مرغريت قلبه وكانت علة حياته بعد وفاة بنته

على انه لم يؤنبها بكلمة إذ لا يحق له تأنيبها ولكنه سألها إذا كانت تستطيع تغيير مناهجها القديمة وفى مقابل ذلك

فانه يعوض عليها بكل ما تشاء فوعدته بالامتثال

وإنما أسرعت بهذا الوعد لانها كانت في ذلك العهد مريضة بل كانت كالزهرة ادركها الذبول

وكانت تعلم ان مرضها انما نتج من ذلك العيش القديم ثم انه خطر لها ان الله لم يبلها بهذا المرض الا عقابا لها عما كانت تأتيه من المنكرات فأنفت من عيشها السابق ومالت الى التوبة حرصاً على صحتها واستبقاء لجمالها وارضاء لله

وكأنما الله قد رضي عن توبتها الصادقة يومئذ فانه لم ينقض الصيف حتى عادت اليها العافية وتورد خداها وعولت على العودة إلى باريس

اما الدوق فقد لقي عزاء عظيما بعشرتها لا سيما بعد توبتها فصحبها الى باريس ولبث يختلف اليها كما كان يفعل في بانيير

وقد انطلقت الالسن بشأنهما بعد ان اشتهر أمر الدوق معها دون ان يعلموا السبب الاكيد في اتصال الدوق بها فكانوا يذيعون عنهما كل شيء ما خلا الحقيقة

اما مرغريت فانها لبثت محافظة على وعدها للدوق في

تلك مدة اقامتها فى بانيير

ولكنها حين عادت الى باريس حنت الى العهد القديم ولم يعد يسعها الاحتفاظ بذلك الوعد لا سيما وانها كانت معودة على الملاعب والمراقص وكل انواع الملاهى فلم تطق عيشة العزلة والانفراد

وفوق ذلك فانها عادت وهى فى تمام صحة وقد زادتها العافية جمالاً على جمال وكثر من حولها المريدون وهى لم تبلغ عشرين ربيعاً بعد

وقد كان حزن الدوق عظيماً حين اخبره اصحابها بعودتها الى العيش القديم فلما سأل مرغريت لم تكتم عنه حرفاً من امرها والتمست منه بملء الاخلاص ان لا يهتم بها بعد الآن لانها لم تجد من نفسها قوة تعينها على الوفاء بوعدها ولأنها لا تطيق ان تنفق من اموال رجل وهى تخدعه

فامتنع الدوق عن زيارتها ثمانية أيام وهذا كل ما اطاقه وفى اليوم الثامن عاد الى مرغريت وجعل يتوسل اليها ان تقبله متعهداً أن لا يعترضها فى شىء من أمورها بشرط ان يراها وقد اقسم لها أنه لا يؤنبها بكلمة ولو مات من القهر

وهذه هى حالة مرغريت بعد ثلاثة اشهر من عودتها اى فى
شهر دسمبر سنة ١٨٤٢



٣

ففى اليوم السادس عشر من شهر مارس وهو اليوم المعين لبيع اثاث مرغريت ذهبت فى الساعة الاولى بعد الظهر الى منزلها فوجدته غاصاً بالناس على اختلاف طبقاتهم

وكان الجميع يضحكون ويمزحون كأنهم فى وليمة ولم أجد بينهم من ذكر انه فى منزل فتاة ماتت فى نضارة صباها حتى صديقاتها واصدقاءها فكانوا كلهم يضحكون ويمنعون بقهقهتهم وصول صوت الدلال الى المسامع

وجرى المزاد وبيعت الأمتعة بأثمان مختلفة بعضها بالغبن وبعضها بالربح

وكنت واقفا بين أولئك الناس لا أرغب الشراء إذ لم أكن فى حاجة الى تلك النفائس ولكننى كنت أود أن أشترى شيئاً بثمن زهيد احفظه كتذكار من هذه الصبية المنكودة

وما زلت واقفاً الى ان سمعت الدلال يقول :

هو ذا كتاب مجلد خير تجليد اسمه «مانون لسكوت»

وعلى صفحته الأولى كتابة . . ثمنه عشرة فرنكات

وبعد سكوت قصير قال احد الحاضرين اثنا عشر

فرغبت فى هذا الكتاب وقلت خمسة عشر

ولم أدر لماذا رغبت فيه فقد كنت قرأته مراراً ولعل ذلك لبخس ثمنه أو للكتابة الموجودة فى صفحته الأولى كما أعلن الدلال

وكأنما الذى زاد قبلى ساءته زيادتى فقال بلهجة تبين فيها الغضب

ثلاثين

فاستأت لاستيائه وقلت بنفس لهجته خمسة وثلاثين

— اربعين

— خمسين

— ستين

— مائة

فلما رأى خصمى ما كان من اصرارى وعنادى رأى ان

يتخلى عن المعترك واحدقت بى الابصار بعد ان ساد السكوت ليروا من هذا الرجل الذى يشترى كتابا بمائة فرنك وهو لا يساوى أكثر من خمسة عشر فرنك

أما خصمى فانه نظر الىّ وقال لى وهو يبتسم

لقد تخليت لك عن الكتاب فبورك لك فيه

ولم يكن معى كل المبلغ فأبقيت الكتاب عند الدلال ونقدته ما كان فى جيبى فكتب إسمى فى السجل بجانب الكتاب وذهبت إلى المنزل فجئت ببقية المبلغ وأخذت الكتاب

وكان أول همى انى بحثت فى الصفحة الاولى لأرى تلك الكتابة التى كانت فيها فوجدت انها تدل على ان هذا الكتاب اهدى الى مرغريت من ارمان دوفال وقد كتب فوق توقيعه « مانون تهدى إلى مرغريت »

مسكينة تلك الفتاة وياويح أمثالها فان المرء إذا اخطأ فى حبها فان خطأه يكون أقل إذا أشفق عليها

الا ترى ان المرء يشفق على الأعمى الذى لا يستطيع ان يرى نور النهار وعلى الأصم الذى لا يسمع صوت الطبيعة

وعلى الأبكم الذى لا يستطيع التعبير عن مراد نفسه فكيف يتذرع بتلك العفة الكاذبة وينحيها عذرا فلا يشفق على عمى القلب وصمم النفس وبكم الضمير التى تدع تلك الغذيـة غير جديرة بأن ترى الطريق السوى وتفقه أقوال الله وتتكلم بلغة الحب الطاهر الشريف

ثم ان أكابر الرجال قد دافعوا عنها دفاع المشفق الرحيم فهـذا فكتور هيكو فقـد أنشأ « ماريو دلارم » وهذا «الفريد دى موسه» فقد وضع بيرنيت وهذا اسكندر ديماس فقد كتب فرنند

وكذلك أكثر الكتاب والمفكرين فاز منهـم من حاول ارجاع شرفها المفقود وتزوج منها رحمة بها

وكنت اود الاكثار من هذه البراهين لو لم أخف أن يوجد كثير من القراء ينبذون كتابى لاعتقـادهم انى انتصر للرذيلة

وحاشاى ان افعل فمن كان يخاف فى قراءة كتابى هذا الخوف فليمض فى قراءته وانا الضمين

ولكنى اعتقد ان فى تلك المرأة التى لم تنر قلبها التربية

فترشدها الى طرق الخير ان الله جل جلاله فتح لها طريقين وهما طريق الشقاء وطريق الحب

وكلا الطريقين صعب للسالكين فسارت بهما الغانية فدميت قدماها واثخنت يداها بالجراح ولكنها تركت في تلك الطريق الشائكة كل بهرجات الرذيلة ووصلت الى الغاية لذلك العرين الذى لا يحمر وجهها خجلا منه لقاء وجه الله

ام تحسب انه يكفي ان تقول يوجد طريق للخير وطريق للشر وعلى السالك ان يختار

كلا بل يجب اظهار طريق الشر وتمثيلها كي تكون سبيلا الى بلوغ طريق الخير كما فعل عيسى

وهذا مثله مع الابن الشارد يعلمنا الرحمة والعفو فقد ولد الرفق يوم مولد عيسى وكان خير المشفقين على نفس تلك الغانية التي هشمتها شهوات الرجال فعالجها من نفس جراحها ، الم يقل للزانية

انك احببت كثيرا وسيغفر لك كثيرا

فلماذا نكون أشد قوة عليها من المسيح وإذا كان قد عالجها بنفس جراحها فلماذا لا نقتدى به فنبسط طريق الغواية

وقد امرت خادمى بادخاله فدخل فرأيت رجلا اشقر الشعر طويل القامة مصفر الوجه مرتدياً بثوب اصفر يظهر انه لم يخلعه منذ بضعة أيام ولم ينفض الغبار عنه

وكان الاضطرب باديا فى وجهه والدموع تكاد تسيل من عينيه وهو لا يبذل اقل جهد لاخفاء الاضطراب

وقد بدأ يحادثنى بعد السلام فقال لى بصوت يتهدج أرجوك أن تعذرنى يا سيدى لزيارتك بهذا الثوب ولكن بين الفتيان تذهب الكلفة فقد كان اضطرارى الى لقاءك اليوم عظيما فترانى لم أجد متسعاً من الوقت للذهاب إلى الفندق وتغيير ملابسى بل أسرعت اليك مبكرا لخوفى من أن لا أجدك إذا تأخرت

فدعوته إلى الجلوس بجانب النار ليصطلى من البرد فجلس وأخذ منديلا من جيبه فستر به عينيه

ثم تنهد تنهداً يشف عن حزنه العظيم وقال لى

انك لا تستطيع أن تعلم يا سيدى سبب زيارتى فى مثل هذه الساعة وعلى هذا الاضطراب لاسيما وانك لا تعرفنى وانما أتيت لألتمس منك قضاء أمر أرجو أن يكون مقضياً

قات على الرحب يا سيدى وهو مقضى ان شاء الله

قال انك حضرت ببع أثاث مرغريت غونيه أليس كذلك

وهنا اشتد اضطراب الرجل حتى انه لم يملك نفسه وتساقطت الدموع من عينيه فقال

ألتمس منك أن تعذرنى يا سيدى لما تراه من تأثرى وانفعالى وانى لا أنسى مدى الحياة احسانك الىّ وصبرك علىّ

قلت أرجو أن يكون هذا الأمر الذى تسألنى قضاؤه كاشفا لغمك مخففا لبلواك فقل يا سيدى ما تريد قوله فانك تجد منى رجلا يعد نفسه سعيداً بخدمتك

فقال لى ألم تشتر شيئا من منزل مرغريت

قلت نعم انى اشتريت كتابا

— مانون لسكوت أليس كذلك

— هو ذاك

— ألا يزال هذا الكتاب عندك

— نعم فهو فى الغرفة التى أنام فيها

فتنفس الصعداء بعد وثوقه من وجود الكتاب كأنما ذلك قد فرج كربته وأخذ يشكرنى كأنى قد بدأت بقضاء

حاجته بحفظ هـذا الـكتاب

وقد قمت من فورى الى غرفة الرقاد وجئته بالـكتاب فدفعته اليه

فأخذه ونظر الى الصفحة الأولى منه فقال نعم هو بعينه وقد سقطت دمعتان من عينيه على تلك الصفحة ثم نظر الىّ دون أن يتكلف اخفاء بكائه وقال لى

هل أنت متمسك بهذا الـكتاب

قلت لماذا تسألنى هذا السؤال

قال لأنى جئت ألتمس منك أن تتخلى لى عنه

قلت أرجوك أن تعذرنى لفضولى يا سيدى إذن أنت هو الذى أهدى مرغريت هذا الـكتاب

قال نعم

قلت انه لك يا سـيدى ويسرنى انى اسـتطعت أن ارجعه اليك

قال إذا كان ذلك فاسمح لى على الاقل أن أعطيك ثمنه

قلت بل اسـمح لى ان اقدمه لك هدية اخلاص فان مثل هذا الـكتاب يشترى من مزاد علنى لا قيمة له وفوق

ذلك فانى لا أذكر كم كان ثمنه

قال ولكنى أنا أعلم فقد دفعت ثمنه مائة فرنك

قلت كيف عرفت ذلك

قال ان الامر بسيط فقد كنت ارجو ان اصل الى باريس يوم المزاد فحالت الحوائل دون قصدى وما بلغتها الا فى صباح هذا اليوم

وكنت أريد ان يكون عندى منها شىء احتفظه على سبيل التذكار فذهبت الى الدلال الذى باع منزلها وسألته ان يطلعنى على بيان الاشياء التى بيعت فقرأت فيها اسمك بجانب اسم هذا الكتاب فعولت على ان ارجوك تتخلى لى عنه

ولم يكن يروعنى غير انك اشتريته بهذا الثمن لحذرى ان يكون لك مأرب من الاحتفاظ به

وكان يقول ذلك وهو يخشى ان تكون لى علاقة سابقة مع مرغريت دعتنى الى شراء كتابا بأضعاف ثمنه فأسرعت الى تطمينه وقلت

انى لم اعرف مرغريت الا بالنظر وقد أثر بى موتها

كما يؤثر بكل رجل موت فتاة فى مقتبل الشباب

وكان خطر لى اذ اشترى شيئا من منزلها فاتفق انى حين زدت فى هذا الكتاب زاد رجل سواى فيه بشكل هاج بى عاطفة العناد فبلغ ثمنه الى ما قلت

والآن فانى أعود الى ما بدأت به من رجائك قبول هذا الكتاب وعسى ان يكون عربونا ممهدا سبيل الصداقة بيننا

فشكرنى شكرا حميما وقال لى انك لم تعرف مرغريت الا بالنظر كما قلت لى ولكنك لو عرفتها حق العرفان لأيقنت انها تشبه الملائكة وهذه الرسالة آخر ما كتبته لى فاقرأها اذا اردت

وقد اخرج من جيبه رسالة يظهر انه قرأها مرات كثيرة ودفعها الى ففتحتها وقرأت ما يأتى

« عزيزى ارمان

« لقد وصلنى كتابك الذى دلنى على انك لا تزال
« كريم القلب فحمدت الله لسلامتك ولارسالك هذا
« الكتاب

« نعم ايها الصديق انى مريضة بذلك المرض الذى لا

« يرحم إذ لا نجاة فيه ولكن عطفك علىّ يخفف كثيراً من آلامى

« ومما لا ريب فيه يا أرمان انى لا اعيش طويلا حتى ان الأجل لا يفسح لى ان اصافح تلك اليد التى كتبت لى هذا الكتاب المعزى. ذلك الكتاب الذى لو كانت الكلمات
« الرقيقة تشفى من الأمراض لكانت علة شفائى من علتى

« كلا ياارمان انى لن أراك بعد فانى على أبواب الموت
« وبينى وبينك مراحل تعد بالمئات

« أيها الصديق الحنون ان مرغريت التى كانت لك من
« قبل قد تغيرت حتى باتت تود أن لا تراها على أن تراها وهى
« فى مثل هذ الحال

« وانك تسألنى اذا كنت اغفر لك . نعم ايها الصديق
« انى اغفر لك بملء الرضى فان تلك الاساءة التى اردت ان
« تسىء بها الىّ لم تكن الا لتبرهن لى عن حبك

« انى طريحة الفراش منذ شهر وانى منذ شهر اكتب
« كل يوم تاريخ حياتى منذ افتراقنا إلى أن لا أجد قوة
« تعيننى على الكتابة

« فاذا كنت صادقا فى ما تكتبه لى يا أرمان فاذهب
« حين عودتك إلى جوليا ديبيرات فهى تعطيك هذا التاريخ
« لأنه لم يكتب إلا اليك

« ومتى قرأته تقف على حقيقة عذرى فى ما جرى بيننا
« ان جوليا طاهرة القلب تحبنى حباً صادقا ونحن نتحدث
دائما عنك وعندما وصلنى كتابك كانت عندى فقرأناه
« وشاركتنى بالبكاء

« ولقد عهدت اليها ان تعطيك هذا التاريخ حين
« عودتك إلى فرنسا إذا لم يرد الينا ما يرشدنا اليك

« ولا تمكن محبتنا لى فى هذا التاريخ فان رجوعى كل
« يوم فى كتابته إلى ذكرى تلك الايام السعيدة التى قضيناها
« تخفف كثيراً من شقائى

« وانك ستجد فى تاريخى خير عذر عن الماضى أما
« أنا فانى أجد فيه خير دواء

« وكنت اود ان ادع لك شيء يبقى لديك على سبيل
« التذكار ولكن الدائنين حجزوا على كل ما عندى فلم يبق
« لى شيء

« واعلم الآن أيها الصديق انى على فراش الموت
« وانى أسمع من فراشى وقع خطوات الحارس الذى
« أقامه المداينون فى منزلى حذراً من أن يذهب شىء منه
« اذا لم أمت

« ولكنهم لن ينتظروا طويلا لبيع ذلك المنزل
« ولكنك ستحضر المزاد يوم البيع وتشترى شيئاً مما
« يباع أليس كذلك يا أرمان فانى أخاف ان ارسل لك شيئا
« من عندى فيعرف أصحاب الدين ويتهمونك بساب
« أمتعة محجوزة

« ما أنكد هذه الحياة الذى أفارقها ولا أسأل الله
« الا ان يمهد لى ان اراك قبل الموت
« ولكن أين لى ذلك وقد أصبحت ساعاتى معدودة
« الوداع يا أرمان واعذرنى لايجازى فان الذين
« يعالجونى قد استنزفوا دمى بكثرة الفصادة ولم تعد يدى
« قادرة على كتابة حرف »

« مرغريت جونييه »

وقد كانت صادقة فى ما كتبته فان اثر الاضطراب

كان ظاهراً فى السطر الأخير من ذلك الكتاب فأرجعته اليه فأخذه وكان قد قرأه دون شك فى ضميره حين كنت اقرأه على الورق فوضعه فى جيبه وقال

من يظن أن كاتبة هذا الكتاب من بنات الهوى .. ويح نفسى انى حين افنكر انها ماتت دون ان اراها وانى لن أراها ما حييت وانى حين افنكر انها كانت تشفق علىّ اشفاق الاخت على اخيهـا لا اغفر لنفسى انى تركتها تموت

اتموت وهى تذكر اسمى وتكتبه . مسكينة يامرغريت

وقد استرسل الى بكائه هنيهة ثم قال

انك قد لا تعذرنى حين ترانى أبكى بكاء الاطفال ولكنك لو علمت كم قاست تلك المنكودة وكم عانت من الشقاء بسببى لعذرتنى لبكائى فقد كنت اعتقد من قبل انها هى المخطئة وان على ان اغفر لها بعد الموت أما اليوم فلم أجد نفسى مستحقا لقبول غفرانها لى بل انى امنح عشرة اعوام من عمرى اذا أتيح لى ان أبكى ساعة عند قدميها

وان من اصعب الامر ان تعزى رجلا على مصاب يجهله ومع ذلك فقد حنت جوارحى الى هذا الفتى الذى كان

بكشف لى دقائق قلبه على غير معرفة سابقة فقلت له

أليس لك أهل وأصدقاء يا سيدى فلا تسترسل الى اليأس فانك ستجد بقربهم خير عزاء أما أنا فلا يسعنى غير الاشفاق عليك

فنهض وسار فى غرفتى ذهابا وإيابا بخطوات غير متوازنة وقال لى :

أسألك معذرتى يا سيدى لأنى أضجرتك فقد اندفعت مع تيار يأسى ولم يخطر لى ان احزانى لا تفيدك فى شىء

قلت بل انك أخطأت فهم المقصود من كلامى فانى مستعد لخدمتك فى كل ما تريد ولكنى أردت قولى انى آسف لأنى لا أجد من نفسى كفاءة لتخفيف احزانك

على انه اذا كانت صحبتى تعزيك فثق انى لا أفارقك بعد الآن فانى أجد ارتياحا عظيما الى خدمتك فى كل ما تريد

قال عفوا يا سيدى فان الاحزان تهيج العواطف الى أن يبلغ بها المرء حد الغلو ويتجاوز المواقف المعروفة وأذن لى أن أبقى هنا الى أن يزول اثر المدامع من عينى فانى أخاف أن يرانى الناس فى الشوارع فيقولون هوذا طفل كبير يبكى

على انك خدمتنى خدمة جلى باعطائك إياى هذا الكتاب حتى انى لا أعلم كيف أستطيع اظهار عواطف امتنانى

قلت ذلك ميسور بأن تهبنى مقابل هبتى شيئا من صداقتك وأن تقص على طرفا من أمرك فانك قد تجد فى ذلك شيئا من العزاء

قال لقد أصبت ولكنى اليوم محتاج الى البكاء ولا يكون كلامى موزونا لفرط اضطرابى

وسأطلعك يوما على حكايتى بتفاصيلها فترى إذا كنت مصيبا فى بكائى تلك الفقيدة

ثم مسح عينيه ونظر الى وجهه فى المرآة وقال

والآن استودعك الله فاشفق علىّ كما قلت وأذن لى أن أعود اليك لأراك

وقد ودعنى ثم أدار وجهه اخفاء لدموعه التى عادت الى الانسكاب فقلت له تشجع أيها الصديق واصبر صبر الكرام

فمسح دموعه وودعنى ثم انصرف فنظرت من النافذة فرأيته يركب المركبة التى كانت تنتظره عند الباب وقد

أخرج منديله من جيبه فغطى به عينيه إذجاءت تلك الذكرى في خاطره فعاد الى سكب الدموع

٥

ولقد مضى عهد طويل دون أن أرى ارمان دوفال ولكنى كنت اشعر بحنو عظيم يدفعنى اليه مع انى لم أره غير مرة فى حياتى فكنت بعد ذلك كل ما لقيت واحداً من رفاق الفتيان أبادره بعد السلام بسؤالى قائلا

— هل عرفت فتاة كانت تدعى مرغريت غونييه

— فيقول لى أما هى تلك الفتاة الملقبة بزهرة الكاميليا

— أقول هى بعينها

— فيقول لقد عرفتها كثيراً

— وكانوا يشفعون هذه الكلمة الاخيرة بابتسام لا يدع شكا فى حقيقة معناه

فأقول كيف كانت هذه الفتاة

فيجب انها كانت طيبة القلب

— أهذا كل ما تعرفه عنها

— نعم فقد كانت شدة ذكائها تعادل طهارة قلبها

— ألا تعرف شيئاً خاصاً عنها

— أعرف انها خربت البارون ج

— وحده

— وانها كانت خليلة دوق شبنغ

— أكانت حقيقة خليلته

— لا أعلم فهذا الذى كانت تتداوله الألسن ولكن مما لا ريب فيه انه كان ينفق عليها كثيراً من المال

وكان أكثر الذين اسألهم يجيبوننى بهذه الاقوال أو بما يماثلها اذ اتت يوما أحد الفتيان الذين ألفوا عشرة ... فقلت له

هل عرفت مرغريت غوتييه

فأجابنى نفس الجواب التى قالها معظمهم فقلت

ألم يكن لها عشيق يدعى ارمان دوفال

فقال أما هو طويل القامة اشقر الشعر

قلت نعم

قال نعم انه كان يهواها

قات من هو ارمان هذا

قال انه فتى كالفتيان كان له ثروة قليلة انفقها عليها ثم اضطر مكرها الى الافتراق عنها ويقال انه كان هائما بها هيام المجانين

قلت وهى

قال انها كانت هائمة به أيضاً ولكنها كسائر امثالها من اولئك الفتيات ومن يستطيع ان يعطى اكثر مما عنده

قلت أنعلم ماذا جرى لأرمان

قال كلا فقد عرفناه قليلا ولم يتم مع مرغريت غير ستة اشهر ولكنهما كانا فى الريف فلما عادت الى باريس سافر منها

قلت ألم تره بعد ذلك العهد

قال كلا

وكذلك انا فانى ما رأيته بعد تلك الزيارة حتى خشيت ان يكون نسى مرغريت لتقادم العهد وان يكون نسى ما وعدنى به من قص حكايته معها علىّ

على ان هذا الافتراض قد يصح بالقياس الى سواه

ولكن لهجة ارمان الدالة على القنوط كانت تدل أيضاً على الاخلاص والصدق الاكيد فلم يسعني الا ان استنتج من كل ذلك ان حزنه قد اشتد به حتى اضناه وان انقطاع اخباره عني قد يكون ناتجا عن مرض أصيب به وقد يكون أصبح من عالم الأموات

ولما طال انقطاع اخباره عني ولم يأت اليّ عولت على ان اذهب اليه ولكني لم اكن اعرف عنوانه ولم اجد بين جميع الذين سألتهم عنه من يعرفه فذهبت الى شارع انتين على رجاء ان اعرف عنوانه من بواب منزل مرغريت فوجدت ان البواب تغير فخطر لي خاطر رجوت ان اظفر به بما اريد وذهبت الى المقبرة التي دفنت فيها مرغريت

وهناك سألت الحارس عنها فنظر في سجل ضخم وقال نعم لقد دفنت هنا امرأة تدعى بهذا الاسم وكان دفنها في ٢٢ فبراير

قلت هو ذاك فهل لك ان ترشدني الى قبرها

قال نعم وقد نادى من فوره أحد الخدم فأرشده الى القبر وأمره أن يرشدني اليه

فمشى الخادم امامي وهو يقول لا اسهل من هذا الضريح يا سيدى

قلت لماذا

قال لأن ازهاره تختلف عن ازهار جميع القبور

قلت أأنت الذى تعتنى بها

قال نعم يا سيدى وحبذا لو اعتنى جميع الأحياء بقبور موتاهم كما يعتنى هذا الشاب الذى عهد الى تزيين هذا الضريح إذن لأصبحت من الاغنياء

وبعد ان سرنا هنيهة وقف وقال هذا هو

فنظرت فرأيت شبه حديقة مربعة لولا بلاطة بيضاء مكتوب عليها اسم الفقيدة لما ظن الناظر ان هناك ضريحاً

اما البستانى فقد سره اعجابى فقال

ارى انك معجب بهذه الازهار

قلت ولا سيما زهر الكاميليا فقد كانت الميتة مولعة بها حتى لقبت باسمها

قال هو ذاك كما يظهر فقد تلقيت الأمر ان اغير كل زهرة عند ذبولها بزهرة ناضرة

قلت من اتى اليك هذا الامر

— فتى فى مقتبل الشباب بكى كثيراً حين زار هذا الضريح ولا شك انه كان من عشاقها فقد قيل لى انها كانت على تمام الجمال اعرفتها يا سيدى

— نعم

— واحببتها كهذا الفتى

— كلا فانى لم أكلمها

— ومع ذلك فأتيت لزيارة ضريحها وهذا ما يدعو الى الثناء عليك لان زوار هذا الضريح لا تغص بهم التربة

— ألم يزره احد

— كلا ما خلا هذا الفتى الذى اوصانى بتزيينه فقد زاره مرة واحدة

— ألم يعد بعد ذلك

— كلا ولابد من عودته حين رجوعه

— العلك تعلم أين هو

— اظن انه ذهب الى اخت مرغريت

— أى شأن له عندها

— انه ذهب اليها ليسألها ان تأذن له بنقل اختها من هذا الضريح الى ضريح آخر

— لماذا لم يدعها فى مكانها

— لأن ارض هذا الضريح قد اشتروها لمدة خمسة اعوام وهو يريد ان يكون الشراء ابدياً وفوق ذلك فانها مدفونة بجوار امرأة نبيلة فلم يجد بدا من نقلها لاعتراض الاسرة على هذا الجوار أليس ذلك من المضحكات يا سيدى وكيف يقولون ان الموت يطهر العيوب

— ان الناس تختلف عقولهم كاختلاف جسومهم فقل لى هل تعرف عنوان المسيو ارمان دوفال

— نعم فهو يقيم فى شارع . . . فقد ذهبت اليه مرة لقبض ثمن الازهار

فهل يريد سيدى ان يراه

— نعم

— ولكنى واثق من انك لا تجده ولو عاد لكان اتى الى هنا

— اذن انت واثق انه لم ينس مرغريت

— كل الثقة بل انى واثق ايضا انه لا يريد نقلها من ضريح الى آخر الا ايراها

— كيف ذلك

— ان اول ماسألنى عليها حين قدومه الى هذه التربة قوله: كيف السبيل الى ان اراها . . فقلت له ان ذلك لا يتيسر الا من ضريح الى ضريح وأرشدته الى المعاملات الرسمية التى يقتضيها هذا النقل وان ذلك لا يكون الا بعد مصادقة اهل الميت وحضور قومسيير البوليس ولذلك سافر توا ليستأذن اخت مرغريت وستكون زيارته لنا اول ما يفعله بعد رجوعه

فشكرت البستانى ونفحته بما تيسر ثم ذهبت من فورى الى منزل ارمان فعلمت انه لم يعد وتركت له فى المنزل رسالة رجوته فيها ان يزورنى حين عودته او يعين لى وقتا لأزوره

وفى صباح اليوم التالى ورد لى كتاب من ارمان يدعونى فيه الى زيارتى لأن تعب السفر انهكه فلا يستطيع الخروج

٦

وقد اسرعت بالذهاب اليه فوجدته فى سريره وصافحته فقلت له انك محموم كما ارى

قال ليس ما يحمل على الخوف فذلك مما لقيته من عناء السفر

— ألعلك قادم من عند أخت مرغريت

— نعم فمن أنبأك

— لقد عرفت ألعلك نلت منها ما أردت

— نعم ولكن من الذى أنبأك عن الغاية التى سافرت من أجلها

— بستانى التربة

— ألعلك زرت ضريحها . . كيف وجدته . . . ايعتنى به البستانى كما وعد

وقد سالت دمعتان على وجنتيه ورأيته يحاول اخفاؤهما فأوهمته انى لم أرهما وأردت تغيير الحديث فقلت له

انك سافرت منذ ثلاثة أسابيع

فوضع يده على جبينه وقال : هو ذاك

— ولكن سفرك كان طويلا

— انى لم أقض كل ذلك الوقت بالسفر فقدمرضت مدة خمسة عشريوماولولا ذلك لماطال غيابى الى الآن فانى لم أكد أصل إلى هناك حتى فاجأتنى الحمى واضطررت إلى ملازمة الفراش

— وقد عدت قبل ان تشفى كما يظهر

— نعم فانى لو اقمت ايضاً اسبوعا فى تلك القرية لكنت الآن من عالم الأموات

— ولكنك الآن فى منزلك فيجب ان تتداوى وتستريح وانا اكون فى طليعة من يزورك من اصحابك إذا أذنت

— حبذا لو تمكنت من الاستراحة ولكنى سأبرح المنزل بعد ساعتين

— ماذا تقول

— ذلك لابد منه

— ما الذى يدعوك الى هذه العجلة

— يجب ان اذهب الى قومسيير البوليس

— لماذا لا تعتمد على أحد فى هذه المهمة فان خروجك يزيد حمّاك

— بل هو الدواء الوحيد الذى يشفينى . . نعم لا بد لى ان أراها فانى منذ عرفت موتها ولا سيما بعد ان رأيت قبرها لا أعرف الرقاد

وإنى حين أفتكر ان تلك الفتاة التى تركتها وهى آية الجمال وزين الفتيات أصبحت فريسة الموت يذهب صوابى وأصبح كالمجانين

نعم انى أريد أن أتحقق أمر موتها بنفسى بل أريد أن أرى ما صنع الله بهذه الفتاة التى طالما أحببتها وكيف أحال ذلك الوجه الجميل الذى خلقه فتنة لعباده ورجائى ان تصحبنى فى هذه الرحلة إذا أردت

— ماذا قالت لك أختها

— لم تقل شيئاً سوى انها ذهلت حين علمت ان رجلا غريبا يريد أن يشترى ارضاً يبنى فيه مدفنا لرغريت وقد وقعت من فورها على الاذن الذى طلبته اليها

— أتقبل نصيحتى أيها الصديق وتؤجل نقل الضريح إلى أن يتم شفاؤك

— لا تخف فسأكون شديداً بل ثق انه لا يتم لى الشفاء إلا إذا رأيتها أو أصبح من المجانين

— ليكن ما تريد وسأصحبك فى هذه الرحلة فهل رأيت جوليا ديرات

— نعم

— هل أعطتك الاوراق التى أودعتها عندها مرغريت

— هذه هى تحت وسادتى فقد قرأتها مراراً حتى استظهرتها وسأطلعك عليها حين يهدأ تأثرى والآن فلى ملتمس منك ارجو قضاءه

— ماهو

— ان مركبتك تنتظرك عند الباب أليس كذلك

— هو ذاك

— إذن أرجوك أن تذهب إلى إدارة البريد وتأتينى بما وردنى من الرسائل وعند رجوعك نذهب معاً الى فومسيير البوليس فنخبره بما عزمت عليه من نقل الضريح

وقد ذهبت إلى إدارة البريد وعدت اليه برسالتين فوجدته قد ارتدى ملابسه وهو متأهب للخروج

وعند ذلك ذهبنا إلى إدارة البوليس واتفقنا مع القومسيير على ان يكون النقل فى الساعة التاسعة من صباح الغد وافترقنا

وفى اليوم اجتمعنا فى التربة ومشينا مشيا بطيئا إلى ضريح مرغريت يتقدمنا ارمان وهو مطأطىء الرأس دامع العين

وقبل ان نصل وقف فمسح وجهه من العرق وعينيه من الدموع

ثم استأنفنا السير حتى بلغنا الضريح فاستند ارمان إلى شجرة وأخذ الحفار فى نبش القبر

ووقفت بجانب ارمان اراقبه فان عينيه كانتا منفتحتين ونظراته محدقة جامدة كنظرات المجانين وشفتيه تضطربان مما يدل على قرب إصابته بنوبة عصبية أما أنا فلا اقول غير انى ندمت لحضورى

ثم اخرج الحفار التابوت وفتحه فانبعثت رائحة منتنة

تغلبت على رائحة الازهار الناضرة التى كانت محدقة بجميع جهات الضريح

وقد اصفر وجه ارمان وصاح قائلا

رباه ماذا أرى

ذلك انه رأى منظراً هائلا تقشعر له الأبدان فان تينك العينين اللتين كانت تسحر بهما القلوب أصبحتا صفرتين نائرتين وبينك الشفتين اللتين كانتا كالقرمز توارتا إذ أكلهما الدود ولم يبق من ذلك الفم الجميل غير اسنان بيضاء اطبق بعضها على بعض

ومع ذلك فقد عرفت بذلك الوجه الذى شوهه الموت ذلك الوجه الوردى الجميل الذى كانت تفتن بحسنه الناس

أما ارمان فانه لبث محدقا بها وقد أخذ منديله من جيبه فوضعه فى فمه وعضه وأما أنا فقد خيل لى ان نطاقا من الحديد قد طوق رأسى وشعرت كأنما تقابا أسدل على عينى فأسرعت إلى زجاجة من الروائح المنعشة كنت احضرتها معى خصيصاً من قبيل الاحتياط فجعلت أشمها

وأما القومسيير فانه التفت عند ذلك إلى ارمان وقال

له أعرفتها . أهـذه هى

فأجابه بصوت أجش قائلا نعم

فأمر حينئذ باقفال الصندوق و نقله الى الضريح الذى أعد له

وقد خفت خوفا عظيما على أرمان فانه ما لبث بعد ذهابهم بالتابوت ينظر الى الحفرة التى كانوا فيها فدنوت من القومسيير وسألته قائلا

هل يقتضى بقاء المسيو ارمان هنا بعد

قال كلا وخيرله أن تذهب به فانه مريض كما يظهر

فدنوت من ارمان وتأبطت ذراعه وقلت له

هلم بنا

فنظر إلى نظرة منكرة كأنه لا يعرفنى وقال لى

ماذا تريد

قلت لقد فرغنا من مهمتنا ايها الصديق فبقاؤك هنا على ما أنت فيه من الانفعال لا يفيد

وقد مشيت به فتبعنى كالطفل دون ان يعلم الى اين يسير ولكنه كان يتمتم من حين الى حين فيقول

أرأيت عينيها . . أرأيت عينيها

ثم بطئت حركة قدميه فجأة واصطكت اسنانه وبردت يداه واهتز جسمه اهتزازاً عصبياً فخاطبته فلم يجب وكان كل ما يستطيع فعله هو أن يمشي معي بل اني كنت أجره فيطيع

حتى اذا وصلنا إلى باب التربة ركبنا المركبة وبعد أن صعد اليها اصيب بنوبة عصبية شديدة خشيت شر عقباها وقد اردت ان أوقف المركبة عند باب إحدى الصيدليات فأدرك قصدي حينئذ وقد خفت تلك النوبة فقال

لا تخف ودعني أبكي فان البكاء وحده يشفيني

ولكننا لم نصل الى منزله حتى فاجأته الحمى بأشد نوباتها واخذ يهذي فيقول اقوالا مختلفة متقطعة لم يكن يلفظ منها بجلاء غير اسم مرغريت

وبعد هنيهة اقبل الطبيب فبعد أن فحصه سألته عن حاله فقال

"انه مصاب بحمى دماغية وارجو ان يكون ذلك لخيره فلولاها لذهب عقله فان مرض الأجسام يفتك بمرض العقول وأظن انه لا يمر به شهر حتى يشفى من المرض

٧

ان لهذا المرض الذى أصيب به أرمان ميزة على سواه من الأمراض فهو إذا لم يقتل لساعته أمن المريض أخطاره

ولم يمر أسبوعان على الحادثة التى بسطناها حتى أصبح أرمان فى دور النقاهة وكانت الألفة قد قيدتنا بأمتن وثاق الوداد فانى لم أبرح غرفته طول مدة مرضه

فكان الربيع قد أقبل وصح فيه هذا الوصف

روضة الآس والبنفسج غنا
وهذار الربى على العود غنى
وزمانُ البهار وافى يرينا
باهر الزهر مفرداً ومثنى
واستهات سدامع الحزن تبكى
وبدا الاقحوان يضحك معنا

وكانت نوافذ منزل ارمان تشرف على حديقة طيبة الزهر انيقة العطر فأذن له الطبيب أن يجلس الى النافذة

ويتناشق تلك الرياض فكنت اجاره هناك نتحدث حين تكون الشمس فى ابان حدتها اى من الظهر الى الساعة الثالثة

وكنت اجتنبت كثيرا محادثته عن مرغريت حذراً من أن تهيجه الذكرى فينتكس بعد الشفاء

ولكن الامر كان على عكس ما كنت اتوهم فان ارمان كان يذكر اسمها ويتحدث عنها بملء الارتياح دون أن يذرف دمعة او يتجهم له وجه كأنما هذه الحمى غيرته من حال الى حال

بل انه كان يذكر اسمها ويبتسم وهو ما كان يطمأننى على حالته الروحية

وقد قضينا على ذلك بضعة ايام وهو فى كل يوم يتجه الى العافية الى ان قال لى يوما ونحن جالسان كعادتنا الى النافذة

لقد آن لى ايها الصديق ان أقص عليك حكايتى ولك ان تجعلها كتابا اذا اردت فانهم لا يصدقون انها حكاية اغرابتها ولكنها لا تخلو من فائدة لمن يعرف ان يستفيد

قلت ستقص علىّ ذلك فيما بعد ايها الصديق فان الايام بيننا ولم تثب اليك كل عافيتك بعد

فابتسم وقال

انى اكلت اليوم بملء الشهية وليس لدينا ما نلهو به فلنتلاهى بقص حكايتى الآن

قلت اذا كنت مصرًّا على سردها فقل انى مصغ اليك

قال انها حكاية بسيطة سأقص عليك حوادثها متبعاً زمن وقوعها ولك ان تكتبها كما تشاء

واليك ما قصه علىّ أرويه للقراء كما تلقيته دون تحريف أو تغيير الا ما قضت به صناعة الانشاء وترتيب الوقائع

بدأ ارمان حديثه بملء السكينة كأنما لم يبق فى نفسه أثر من موت تلك الفتاة فقال

لقد كان بدء حكايتى فى ليلة مثل هذه الليلة

وكنت قد قضيت نهارى فى الخلاء مع صديق لى يدعى غاستون ر . وفى المساء عدنا الى باريس فذهبنا إلى ملعب الفاريتيه

وفى خلال الفصول خرجنا إلى المقصف فرأيت فتاة جميلة الطلعة مرت بنا وحياها صديقى فردت عليه التحية بألطف ابتسام

فدهشت لجمالها وسألته قائلا من هي هـذه الفتاة

قال مرغريت غوتييه

قلت عجباً انى كنت اعرفها فلم اعرفها الآن لتغيرها

قال نعم فقد كانت مريضة وما هي من ابناء الحيـاة

وان صدى هذه الكلمات لا يزال يرن فى اذنى كأنى سمعتها الآن

ومن غريب امرى مع هـذه الفتاة انى منذ سنتين لم اكن أراها مرة حتى يصفر وجهى ويخفق قلبى خفوق اجنحة الطائر كأنما كتب لى فى لوحة المقدور ان اكون بها من الهائمين

وكانت اول مرة رأيتها فيها فى شـارع البورصة عند باب محل للبضائع النسائية فانها اوقفت مركبتها عنـد بابه وخرجت منها وهى تلبس ثوبا ابيض كانت به فتنة القلوب فطوقتها الابصار كالنطاق ولم تكن تسمع من حولها غير كلمـات الاعجاب

اما انا فلبثت فى موقفى انظر اليهـا من زجاج الباب دون ان اجسر على الدخول الى ذلك المخزن

ولم أكن أعلم من هى هذه المرأة الفتانة ولم أجسر على

الدخول كما قلت حذرا من أن تعرف قصدى فصبرت الى ان خرجت فدخلت وسألت احدى البائعات عنها فقالت لى

انها مدموازيل مرغريت غوتييه

وقد طبع رسمها على صفحات قلبي وتمشى حبها فى مفاصلى لأول نظرة فجعلت ابحث عنها فى كل مكان دون ان اهتدى اليها

الى ان مثلوا فى الأوبرا رواية جديدة فذهبت لحضورها وكان أول من رأيته من النساء هناك مرغريت وهى جالسة فى أنخر مكان من الملعب

وكان يصحبنى صديق يعرفها وتعرفه فجعلت تنظر بنظارتها إلى الناس الى ان استقر نظرها على صديقى فابتسمت له وأشارت ان يزورها فى لوجها فقال لى سأذهب اليها لحظة ثم أعود اليك

فلم يسعنى الا ان اغبطه على هذه النعمة وقلت له انك إذن لسعيد

قال لماذا

قلت لأنك سترى هذه الحسناء وتحدثها

قال املات هائم بها

فاحمر وجهى وقلت كلا فانى : اعرفها بعد ولكنى أود ان اتعرف بها

قال ذلك سهل ميسور فتعال معى

قلت ايكون ذلك دون استئذانها

فضحك وقال

اتحسب ايها الصديق انى سأعرفك بدوقة هلم معى فاننا لا نتكلف مع هؤلاء الفتيات

وقد ساءنى ما سمعته من قوله إذ وثقت الآن ان مرغريت لا تستحق ما لقيت فى سبيلها من العناء فلقد قرأت نكتة فى كتاب وضعه أحد كبار المؤلفين قال فيه ان رجلا خرج فى ليلة يتعقب امرأة حسناء فتن بجمالها حتى انه كان يبذل كل ما عز عنده فى سبيل ابتسامة من فمها الجميل أو قبلة من يدها المترفة الناعمة

وبينما هو يسير فى أثرها وقد تيمته حبا إذ وقفت فى زاوية الطريق عند باب منزل وقالت له

اصعد اذا شئت

فأدار وجهه وانصرف كئيبا حزينا اذ علم انها من بنات الهوى

وقد ذكرت عند ذلك تلك النكتة وكان أسفى شديدا اذ كنت اعتقد ان اول حبها سقم وآخره قتل وانها أكثر منعة من الملكات فاذا بها ممن يدخلون اليها دون استئذان ويحادثونها لأول مرة دون كلفة فأسفت لولوعى القديم وأمانى نفسى الخائبة فلقد يقال لى

« انك ستحظى بهذه الحسناء الليلة وتموت فى الغد »

فاقبل وقد يقال لى

« انك ستحظى بهذه الحسناء وتصبح عشيقها على أن تنقدها عشرة دنانير » فانفر آنفا وابكى بكاء طفل خيبه الصباح ما بناه له من الآمال فى الليل

ومع ذلك فقد كنت اود ان اتعرف بها كى اعلم على ماذا تنطوى بل لأعلم كيف يكون مصيرى معها فرضيت باقتراح صديقى وخرجت واياه من ساحة الملعب وانا اعد فى خاطرى ما سأقوله لها

ولكنى كرهت ان افاجئها بزيارتى فتقدمنى صديقى

إلى زوجها ثم عاد إلى وهو يقول

انها تنتظرنا

قلت أهى وحدها

قال بل تصحبها امرأة

ـ ألا يوجد معها رجال

ـ كلا

ـ اذن هلم بنا

وقد تأبط ذراعى وخرج بى من الساحة إلى المقصف

فاعترضته قائلا

لقد ضللت الطريق

وقال ولكني أريد ان اشترى لها ما طلبته من الحلوى

ودخلنا إلى المقصف فاشترى نوعا من الملبس فقلت له

أهذه هى الحلوى التى طلبتها

قال انها لم تعين نوعها ولكن أمرها مشهور فهى لا تأكل الا من هذا الملبس

والآن هلم بنا ولكن لا بد لى ان اعيد عليك بالتصريح ما نوهت عنه بالاشارة وهو انى لست ذاهبا بك لزيارة

سيدة من النبيلات بل لزيارة فتاة من اشهر بنات الهوى فلا يعقد لسانك الاحترام وقل لى كل ما يجول فى خاطرك دون تهيب على الاطلاق

قلت حسنا فلنذهب

وقد صعدنا الى لوجها وسمعت قهقهتها من الخارج فعرفها صديقى بى فأحنت رأسها ثم نظرت الى نظرة تدل على عدم الاكتراث وسألت صديقى قائلة

اين الحلوى

فأعطاها ما جاءها به وشغلت بأكلها عنى فلم تقل لى كلمة ولم اجد ما اقوله وقد باغتتنى بما رأيت

وكأنما صديقى قد تنبه لحرج موقفى فقال لمرغريت

لا يذهلك يا مرغريت وجوم المسيو دوفال فقد باغته بمناهجك المألوفة حتى لم يعد يجد متسعا للقول

قالت بل أرى انه لم يصحبك الى الآن لأنك خشيت الملل من قدومك وحدك

قلت لو كان ذلك كما تقولين يا سيدتى لما سألته أن يستأذن لى بزيارتك

فأجابتى جواباً يدل على ذكائها وحضور ذهنها نفس دلالته على قحتها وتماديها بعدم الاكتراث بى فأنفت مما سمعت وقمت فقلت لها

اذا كان هذا ظنك بى يا سيدتى لا يبقى على الا ان اسألك العفو عن جرأتى بالمثول بين يديك وان استأذنك بالانصراف الى ان لا أعود الى هذه الجرأة

ثم حييتها وخرجت فلم أكد اقفل الباب حتى قهقهت ضاحكة فذهبت أتوهج غضبا وعدت الى القاعة انظر الى التمثيل وانا لا أرى منه شيئا ولا افقه حديثا

وبعد هنيهة اقبل صديقى يلومنى لرعونتى ولانصرافى على ذلك الشكل فقلت له ما الذى قالته بعد انصرافى

قال انها ضحكت ضحكا مستطيلا وحسبتك من الجبانين فلا تجزع وتعلم ان لا تخاطب امثالها بما تخاطب به الشريفات فانهن لا يعرفن معنى ادب المحادثات

وما مثلهن الا مثل الكلب تعطره فيأنف رائحة العطر ويلقى نفسه فى اول ساقية يجدها ليزيله

قلت وأى شأن لى معها فانى لن أراها بعد الآن وإذا

كان قد راق لى جمالها قبل أن أعرفها فلم يبق لذلك الجمال شىء من التأثير بعد هذا التعارف

قال بل انى سأراك يوما فى لوجها وستسمع انك أفلست من أجلها على انك أصبت فانها سيئة التأدب ولكنها بارعة الجمال

وهنا انتهى حديثنا بشأنها فلما انتهى التمثيل ودعت صديقى وحاولت الانصراف فقال لى هل أنت ذاهب

قلت نعم

قال لماذا

وقبل أن أجيبه حانت منه التفاتة الى اللوج ورأى ان مرغريت خرجت منه فابتسم وقال

اذهب فانى أدعو لك بالتوفيق

وفيما أنا خارج من القاعة رأيتها واقفة عند باب الملعب مع صديقها وسمعتها تقول لأحد الخدم

اذهب وقل للسائق أن ينتظرنى عند باب القهوة الانكليزية فانى ذاهبة ماشية اليها

وقد ذهبت فانطلقت فى أثرها ولم ادخل الى القهوة

بل وقفت فى الشارع فرأيتها بعد هنيهة واقفة متكأة على مشرف ورأيت فتى من ورائها يهمس فى أذنها فشعرت كأن عقربا لدغتني وانالا اوقه لهذه الغيرة معني بعدما كان بيننا

وابثت هنالك الى الساعة الاولى بعد انتصاف الليل فخرجت عائدة الى منزلها يصحبها ذلك الرجل

وقد ركبت مركبة وسرت فى أثرها الى شارع انتين حيث تقيم وهناك رأيتها ودعت ذلك الرجل ودخلت وحدها الى المنزل فعدت الى منزلى وبت بليلة الملسوع

ومنذ ذلك اليوم لم يكن يمر بى يوم دون أن أراها فيه أما فى الملاعب وأما فى الغابات

ثم مر بى اسبوعان دون أن أراها فلقيت صديقى غاستون وسألته عنها

فقال لى مسكينة انها مريضة

قلت ما هى علتها

قال انها مصدورة ولا أجد أملا بشفاءها

ولا أذكر ما كان من تأثيرى بهذا النبأ ولكن جعلت اذهب الى منزلها فى كل يوم فاسأل عن اخبارها دون أن

اذكراسمى الى ان علمت بنقاهتها وسفرها الى بانيير برأى الاطباء

ثم توالت الايام وكر الزمان وشغلتنى عنها الاسفار والاشغال فحسبت ان تذكارها قد أمحى من قلبى وان كل ما در بى لم يكن غير عاطفة اوحاها الى الشباب

الى ان عادت ورأيتها مبرقعة ببرقع كثيف فعرفتها دون أن أرى وجهها وخفق قلبى خفوقا عظيما بعد أن مر بى عامان لم أرها فى خلالهما فأيقنت كما قلت فى مقدمة الحديث ان حبها كتب لى فى لوحة المقدور

٨

على انى مع علمى انى لا أزال هائما بها شعرت من نفسى بقوة تعيننى على لقائها وصد كبريائها

وقد ذهبت الى قاعة التمثيل وكانت هى فى لوجها فجعلت تنظر بمنظارها الى الحضور وكانت وحدها هذه المرة وهى هزيلة وقد تغير كل شىء فيها حتى ابتسامها فانها لم

تكن تبتسم بذلك الشكل الذي كان يدل على عدم الاكتراث بل كانت تبتسم والحزن يتبين في ابتساماتها

وقد جعلت انظر اليها محدقا كأني اريد ان اضطرها الى النظر الي ففزت بما اردت ونظرت الي بالعين المجردة نظرة المتأمل ثم اخذت منظارها وعادت تنظر الي كأنها عرفتني فابتسمت لي ابتسامة لطيفة وبانت لحظة تنتظر ان ارد تحيتها

ولكني لم افعل كأني اردت ان تغلب عليها وان اظهر اني نسيتها حين ذكرتني

فلم يكن لذلك أقل تأثير ظاهر عليها ورأيتها صوبت منظاره، الى لوج كان مقابلا لاوجها وهي تبتسم

فنظرت الى ذلك اللوج فرأيت فيه امرأة كنت أعرفها حق العرفان فانها كانت من الخطايا الباريسيات فأقامت عن هذا العيش لا لتوبتها بل لأنها استعاضت بالتجارة عن جمالها الذاهب

وقد قلت في نفسي حين ايقنت من صداقتها مع مرغريت انها ستكون خير واسطة لي معها وجعلت انظر اليها حتى حانت التفاتة منها الى خيبتها واشارت الي أن

اصعد اليها فأسرعت الى الامتثال

ولقد كانت هذه المرأة تدعى بريدانس ديفرنواى وهى في الاربعين من العمر سبلة القياد لطيفة الشعور

وفيما انا جالس معها اغتنم فرصة لمحادثتها في الشأن الذى اريده رأيتها عادت الى محادثة مرغريت بالنظر فسألتها قائلا

الى من تنظرين هذه النظرات

قالت الى مرغريت غوتييه

— اتعرفينها

— انها من خير زبائنى وفوق ذلك فهى جارتى

— اتقيمين اذن فى شارع انتين

— نعم وفى المنزل السابع منه فان احدى نوافذى متصلة بنافذة غرفة زينتها

— يقال انها من الطف الفتيات

— كيف ذلك ألا تعرفها

— كلا ولكنى اود ان اعرفها

— اتريد ان ادعوها الى الحضور الينا

— كلا بل اوثر ان تقدميني لها

— في منزلها

— نعم

— هذا صعب

— لماذا

— لأن الدوق يحميها وهو شديد الغيرة

— ماذا تعنين بقولك يحميها

— اعني ان هذا الدوق شيخ عجوز يناهز السبعين من العمر فلا يمكن ان يكون عشيقها

— وقد قصت على بريدانس عند ذلك حكاية مرغريت مع هذا الدوق حتى اذا وقفت على حقيقة امرها قلت لها

— اذاً هذا هو السبب بوجودها وحدها في اللوج

— هو ذاك

— ومن يرجع بها الى المنزل

— الدوق

— ايأتي الى هنا للذهاب معها

— سيأتي بعد هنيهة

— وانت من يصحبك

— اذهب وحدى

— انا ذنين لى بمرافقتك

— ولكنى رأيتك مع صديق لك

— يذهب معى

— من هو هذا الصديق

— انه فتى ذكى الفؤاد ويسره ان يعرفك

— اذن لقد اتفقنا فسنذهب جميعنا بعد انتهاء هذا الفصل فانى أعرف الفصل الأخير

— كما تريدين وأناذاهب لاخبار صديقى بما اتفقنا عليه

وعند ذلك دخل الدوق الى لوج مرغريت فدلتنى بريدانس عليه فرأيت رجلا أحنت ظهره الايام وبيضت شعره السنون دخل وجلس وراء مرغريت بعد أن اعطاها كيسا من الحلوى

فنظرت مرغريت إلى بريدانس وسألتها بالنظر إذا كانت تريد أن ترسل لها شيئا من هذه الحلوى فأجابتها بالرفض فعادت إلى محادثه الدوق فوددت لو خسرت عشرة أعوام

من عمرى على أن أكون فى مكانه

وعند انتهاء الفصل الرابع من الرواية ذهبت يصحبنى صديقى غستون الى منزل بريدانس فكنت أحسب نفسى سعيداً لأنى وجدت فى منزل يلاصق منزل مرغريت وما بانت انجماث الحديث فى شأنها فقلت ترى أيكون الدوق عند جارتك الآن

قالت كلا فهى وحدها

فقال غاستون مسكينة ان ضجرها سيكون عظيما

قالت لقد تعودنا أن نتم السهرة معاً فانها حين قدومها من الملعب تدعونى اليها فنسهر إلى الساعة الثانية بعد انتصاف الليل لأنها لا تستطيع النوم قبل هذا الوقت

— لماذا

— لأنها مريضة فى صدرها والحمى لا تكاد تفارقها

— أليس لها عشيق

— لا أرى أحداً يبقى عندها بعد انصرافى ومع ذلك فلا أجزم بأمرها فقد يكون لها عشيق يأتى بعد انصرافى على انى كنت أجد عندها أكثر الليالى الكونت

ن . وهو يعتقد انه نال حظوة لديها لأنه يزورها عندا نتصاف الليل ويأتيها بما شاءته من الحلى والنفائس والحقيقة انها لا تطيق أن تراه

وعندى انها مخطئة فان الكونت على كرهه من كبار الموسرين وطالما نصحتها فى شأنه فكنت كالنافخ فى الرماد لاعتقادها انه من أهل البلاهة

وطالما قلت لها ان هذا الكونت لا يقل ثروة عن الدوق وان الدوق قد بلغ من العمر عتياً فاذا مات حل هذا الكونت محله فلا تنتبه لنصحى وتعيش هذا العيش الذى لا أرضاه لنفسى فان الدوق يكاد يسد عليها منافذ النسمات لغيرته ولو خرجت الآن الى الشارع لوجدت أحد خدمه يرود حول المنزل فأى عيش هذه الفتاة لم تتجاوز العشرين

فتأثر غاستون مما سمعه وقال إذن لقد تبين لى السبب فى كآبتها فان الحزن لا يزال ماثلا بين عينيها كأنها فجعت بعزيز

قالت اسكت فانها تدعونى كما اظن

فأصغينا كلنا وسمعناها تنادى بريدانس من نافذتها

فأسرعت إلى تلبيتها وهى تقول لنا

اذهبا أيها الصديقان فلم يبق بد من ذهابكما

فاعترضها غاستون ضاحكا وقال

أهذه هى شروط الضيافة عندك . . كلا اننا لا نذهب إلا حين نريد

وسألتها أنا قائلا لماذا تريدين أن نذهب

قالت لأنى ذاهبة إلى مرغريت

— ونحن ننتظرك هنا

— كلا إن ذلك لا يكون

— إذن نذهب معك اليها

— وهذا أيضاً محال

فقال غاستون انى أعرف مرغريت ويحق لى أن أزورها

— ولكن ارمان لا يعرفها

— نعرفه بها

— هذا محال

وعند ذلك عادت مرغريت إلى مناداة بريدانس فهرولت مسرعة اليها واقتفينا أثرها واختبأنا وراء ستارة

كى لا ترانا فسمعنا مر غريت تقول لها بلهجة تشف عن السيادة
انى أناديك منذ حين فماذا تصنعين
قالت لقد أتيت فماذا تريدين
ـــ أريد أن تحضرى فى الحال
ـــ لماذا
ـــ لأن الكونت لا يزال عندى وقد ضيق أنفاسى
ـــ ولكنى لا أستطيع الحضور الآن
ـــ لماذا
ـــ لأنه يوجد عندى اثنان من اصدقائى لا يريدان الانصراف
ـــ قولى لهما انك قادمة الىّ
ـــ لقد فعلت فأبيا الانصراف
ـــ إذن دعيهما فى منزلى واحضرى وليذهبا حين يريدان
ـــ لا حيلة لى بهما فهما يمنعاننى عن الحضور
ـــ ماذا يريدان
ـــ يريدان أن يرياك
ـــ من هما

— إن أحدهما غاستون ر .

— لقد عرفتـه والثانى

— والآخر يدعى ارمان دوفال ألا تعرفينه

— كلا ولكن لا بأس فاحضرى بهمـا فانى أحب مجالسة كل النا س ما خلا هـذا الـكونت الثقيل احضرى فى الحال فقـد ضيق اخلاق

فعادت بريدانس الينا فقال لها غاسـتون

ألم أقل لك انهـا ستسر بزيارتنا

قالت ليس الأمر كما تتوهم يا غاستون بل انهـا تريد أن تتخذكما ذريعة للتخلص من الـكونت ورجائى اليكما ان تبالغا فى ملاطفتها كى لا تكونا السبب فى غضبها علىّ

وبعد هنيهة خرجنا من منزلها فسرت فى المؤخرة وأنا أقدم رجلا وأؤخر أخرى لخفوق قلبى

ودخلنا الى القاعة فوجدنا مرغريت جالسة وراء البيانو والـكونت جالساً بجانب المستوقد وعلائم الحزن بادية فى وجهـه فأسرعت مرغريت إلى اسـتقبالنا والترحب بنـا وبدأت الحـديث مع غاستون فقالت له

٩

يسرني جداً ان اراك ايها الصديق وقد رأيتك في الملعب
فلماذا لم تزرني في اللوج

قال لقد خشيت ان اثقل عليك

قالت ومتى كان الاصحاب يثقلون

وإنما ذكرت لفظة الاصحاب ايهاما للكونت انه الرجل
من اصدقائها لم يتجاوز هذا الحد

فأجابها غاستون قائلا

إذن تأذنين لي أن أقدم لك صديقي المسيو ارمان دوفال

قالت لقد أذنت ابريدانس بذلك قبل أن آذن لك

أما أنا فقد انحنيت امامها وقلت لها

لقد تشرفت قبلا بمعرفتك

فبرقت نظراتها الفتانة كأنها تبحث عن هذه الذكرى
ولكنها لم تذكر شيئاً فبسطت لها على سبيل المزاح ما كان
بيننا في تلك المقابلة وما كان من جورها عليّ فيها

فضحكت واعتذرت عما مضى بأنها مريضة وان اعصابها تهيج احياناً بسبب علتها حتى انها تميل الى العنف ولا سيما فى المقابلات الأولى

فقات ولكنك على أتم ء فية

قالت ولكنى كنت مريضة

ـ لقد عرفت ذلك

ـ من أنبأك

ـ لقد عرفت بمرضك كما عرف به جميع الناس وفوق ذلك فقد كنت أحضر فى كل يوم إلى منزلك فأقف على حقيقة حالك

ـ انهم لا يخبرونى بشيء عنك

ـ ذلك لأنى كتمت اسمى

ـ اذن انت هو ذلك الرجل الذى كان يأتى فى كل يوم ليطمئن عليّ ويأبى التصريح باسمه

ـ نعم يا سيدتى

ـ أتفعل ذلك بعد ما كان بيننا فانك تجاوزت حدّ التسامح إلى حد الكرم ثم التفتت إلى الكونت وقالت له

– أ كنت تفعل فعله انت أيها الكونت

فتمتم الكونت قائلا

– أنى لا أعرفك إلا منذ شهرين

قالت وهو لا يعرفنى إلا منذ خمس دقائق ألا تفتأ تجيب أجوبة الأطفال

فاحمر وجه الكونت ولم يجبها

وانصرفت الينا تحدثنا ثم شغلنا هنيهة بالعزف على البيانو

وبعد ذلك نادت بريدانس وقالت لها

هل فعلت ما رجوتك ان تفعليه

قالت نعم

قالت حسنا فستخبرينى بذلك فيما بعد فلا تذهبى قبل مقابلتى .

فوقفت حين سمعت قولها وقلت لها

أرجو سيدتى أن تأذن لنا بالانصراف وأن تكون قد أنستها مقابلتى الثانية مقابلتى الأولى

قالت بل تبقى فانى لم أقل ما قلته من أجلك

فنظر الكونت عند دلك فى ساعته وقال

لقد آن أوان ذهابى إلى النادى

ثم ترك مجلسه ودنا من مرغريت مودعا فقالت له أتذهب الآن

قال نعم فانى أخاف أن يضجرك حضورى

قالت انك لا تضجرنى اليوم أكثر مما اضجرتنى فى الأيام الماضية فتى أراك

قال متى تأذنين

قالت إذن استودعك الله

وهو قول مؤلم غليظ كما ترى ولكن الكونت كان من خير الرجال تربية وأدبا فلم يجبها بحرف بل لثم يدها وخرج بعد أن حيانا

ولما وصل إلى الباب نظر إلى بريدانس نظرة المؤنب فهزت كتفها اشارة إلى انها فعلت كل ما تستطيع فعله

ونادت مرغريت خادمتها فأمرتها أن تنير طريق الكونت ثم تنهدت تنهداً طويلا وقالت

لقد ذهب والحمد لله فانه يضيق أخلاقى

فقالت لها بريدانس

انك شديدة القسوة عليه أيها العزيزة مع انه أكرم الناس قلباً وأعظمهم سخاء انظرى إلى المستوقد فان الساعة التي أهداها اليك لا تزال عليه وهى تسوى الف ريال على الأقل

قال انى حين أوازن بين هداياه وبين اقواله أجد ان هداياه من غير قيمة وان زياراته من غير ثمن

— ولكن هذا المنكود مفتون بك

— وانا لو اصغيت إلى اقوال كل عشاقى لما بقى لى وقت لمناولة الطعام

ثم التفتت الينا وقالت

وعلى ذكر الطعام فانى ادعوكما إلى العشاء معى الآن

وقبل ان تنتظر جوابنا نادت خادمتها وامرتها ان تعد العشاء

وبعد هنيهة دخلنا إلى قاعة الطعام فتأبط غاستون ذراعها وكان يكلمها همساً فسمعتها تقول له

ويحك ايها الملك من المجانين فانك تعيد على هذه الاقوال منذ عامين فلا تجد غير نفس الجواب فاعلم ان من كانت من

امثالنا اما تحب من فورها او لا تحب وكفى

وقد جلست فى موضعها على المائدة وجلست غاستون عن يمينها وانا عن يسارها واخذنا نشرب ونأكل معاً ونحن على اتم حالات الصفاء فكانت مرغريت تضحك بملء رئتيها من ممازحاتنا فمرت بنا ساعة لا انساها مدى الحياة

ولكن هذا الصفاء لم يلبث ان تنغص فقد اصيبت تلك المنكودة بسعال عنيف انهك قواها واخرج الدم من رئتيها فأسرعت بريدانس بادخالها الى غرفتها وعاونتها على الصعود الى سريرها

وبعد أن سكت سعالها تركتها تستريح وعادت الينا فسألتها وانا اكاد اذوب ولهاً عليها

ما بال مرغريت

قالت لا شيء سوى انها بصقت دماً من فرط ما ضحكت وهذا ما يتفق لها كل يوم فلندعها تستريح بالانفراد فانها تحب الاختلاء فى مثل هذه الحالة

أما انا فلم يسعنى الامتثال ودخلت الى غرفتها غير مكترث لنداء بريدانس

وقد دخلت فلم يكن فى تلك الغرفة غير نور شمعة واحدة وكانت مرغريت مضطجعة وقد فكت ازرار ثوبها ووضعت إحدى يديها على صدرها وأدلت الثانية

وكانت مصفرة الوجه وفمها منفتحاً تتنفس بعنف وهى تتنهد من حين الى حين تنهدات طويلة كانت تجد فيها شيئاً من الراحة

فدنوت منها وجلست على كرسى وأخذت يدها المدلاة بين يدى فابتسمت لى وقالت

أهذا انت فما بالك ألعلك مريض

قلت كلا وانت الا تزالين تتألمين

قالت قليلا

ثم مسحت ما تساقط من دمعها بسبب السعال وقالت

لقد تعودت هذا الحال فلم أعد اكترث له

فقلت لها بصوت يتهدج

بل انك تنتحرين بما تفعلين وما وددت الا ان اكون صديقاً لك او واحداً من اهلك فامنعك عن ان تجورى هذا الجور على نفسك

فأجابتني بلهجة تبين فيها القنوط

ان حالتي لا تستوجب اضطرابك إلى هذا الحد وانظر إلى الذين حولي أتجد بينهم من يهتم بي : كلا وما ذلك إلا لعلمهم بأن لا دواء لهذا الداء

ثم نهضت فتقدمت الشمعة إلى المستوقد ونظرت إلى وجهها بامعان دقائق .

لله ما هذا الاصفرار . . هلم بنا يا أرمان نعد إلى المائدة فاني لا أجد المستقبل بلون الورد إلا حين أنظر اليه من خلال أقداح الخمر

ولكني لبثت في موقفي لا أنقل قدما

فقالت ما بالك واقفاً ألا تريد أن تحضر

فأخذت يدها فلثمتها لثمة طويلة تساقط في أثرها دمعتان من عيني بالرغم عني

فعادت إلى الجلوس بجانبي وقالت لي

ماهذا الدمع الذي تساقط من عينيك . . أتبكي . . ولماذا البكاء

قلت أني قد أبدوا لك بمظاهر البلهاء فاني لم أملك دمعي

عن الانسكاب حين رأيتك على تلك الحال

قالت إنك تبدو لي بمظاهر الكرم والوفاء كما أنت [illegible] تتسلى [illegible] الحزن عليّ و[illegible] كنت [illegible] فقد [illegible] حياة في الوجود فان الاحياء [illegible] هذا [illegible] الذي [illegible] إنما يخرج من [illegible] فأ[illegible] [illegible] وأنا أعرف أني حق العرفان [illegible]

قلت اصغي إليّ يا مرغريت إني لا أعلم ما سيكون من تأثيرك على مستقبل حياتي

ولكن الذي اعلمه الآن أني احن الى تلك النفس حناني إلى أختي وهذا شأني منذ رأيتك أول مرة

ولذلك استحلفك بالله أن تعالجي نفسك بالحمية والرجوع عن عيشك السابق فان الحمية خير دواء لهذا الداء

قالت هيهات فاني إذا تعالجت أو احتميت قربت أجلي بل مت من فوري فأنا أحوج إلى اللهو مني إلى الحمية

وإنما تنفع الحمية بنات العائلات ومن لهن أهل واصدقاء يأسفون عليهن ويهتمون لشؤونهن

اما نحن فاننا إذا انقطعنا ليلة عن اللهو وامتنعنا يوما عن

مجالس السرور تفرق عنا المريدون وابتعد الأصدقاء وقد اختبرت ذلك بنفسي فاني لزمت الفراش شهرين فلم يعدني صديق على كثرة هؤلاء الأصدقاء فأين هو الصديق

قالت سأكون ذلك الصديق الحميم بل الاخ الرحيم وسأتولى الاعتناء بك ليل نهار فلا ابرح منزلك حتى تشفين

ومتى ثابت اليك العافيـة وتغلب شـبابك على دائك تعودين إلى ما كنت عليـه من العيش القديم وانت في احسن حال

قالت إنك تقول هذا القول الآن لأن الخمر قداثرت في قلبك الكريم فاندفعت مع تيار المروءة ولـكنك لا تجد صبراً يعينك على تحقيق ما تقول

قالت الم تجدني صبوراً يا مرغريت حين كنت ازورك كل يوم أثناء مرضك على ما كان بيننا من دواعي النفور

قالت هو ذاك ولكن لماذا لم تكن تصعد الي

— لأني لم اكن اعرفك في ذلك الحين

— ايتكلفون مع امثالي اذن انك ستتولى العناية بي

— دون شك

— وتقيم كل أيامك بقربى

— نعم

— ولياليك

— انى لا أفارقك الا حين تنامين

— ماذا تدعو عملك هذا

— ادعوه الاخلاص

— ومن اين تولد هذا الاخلاص

— من ميل اليك لم استطع ان اتغلب عليه

— اذن لماذا لا توجز فى بيانك وتقول انك عاشق لى

— قد يكون ذلك وقد اقوله لك فى غير هذا اليوم

— خير لك ان لا تقوله

— لماذا

— لان اعترافك هذا يسفر عن نتيجة من اثنتين

— ما هما

— هما إما ان لا ارضى بك عشيقاً فتحقد علىَّ وإما أن أرضى ان اكون خليلة لك فتكون قد علقت ببئس الخليلات واسوأهن طبعاً وأشدهن كآبة .

وما فائدتك من خليلة مصدورة تخرج الدماء من رئتيها وتنفق مائة ألف فرنك فى العام

إن ذلك يصلح لرجل غنى عجوز كالدوق لا لفتى فى مقتبل الشباب مثلك [illegible] جميع الذين هاموا بى من الفتيان [illegible] على [illegible] أمرى حتى تخلوا عنى

فراعنى ما سمعته من جرأتها الأدبية وحريتها فى القول فلم أحر جوابا إذ لم أجد ما أقوله

أما هى فانها مضت فى حديثها فقالت

إننا نتحدث بأحاديث صبيانية ونقول القول اللغو الذى لا فائدة فيه فهلا نعد إلى قاعة الطعام

فقلت اذهبى أنت إذا شئت أما أنا فأوثر البقاء هنا اذا كنت تأذنين

— لماذا

— لأنك ستعودين إلى الشرب واللهو ولا أطيق أن أراك على تلك الحال

— إذن سأكون حزينة منقبضة إذا كان هذا يرضيك

— اسمحى لى يا مرغريت ان اقول لك قولا طالما سمعته من الافواه حتى لم يعد له معنى لكثرة ما الفت سماعه ولكنى لا اقول لك غير الحق الذى لا ريب فيه

فابتسمت وقالت ماذا تريد ان تقول

قلت أقول انى منذ رأيتك شعرت ان قوة جذبتنى اليك وان كهربائية نظراتك قد اخترقت قلبى فملأته غراما كما تفعل الشمس إذا سقط نورها على آنية فانها تملأها شعاعا

بل كنت ولحظيك على حد قول الشاعر

اذا أبصرت قلباً خلياً من الهوى

تقول له كن مغرما فيكون

ولقد طالما حاولت سلوانك فكان خيالك ممثلا لى فى كل سبيل

وأقول انى حين رأيتك اليوم شعرت انك ملكت شغافى وان حبك قد امتزج بدمى وتمشى فى روحى كما تمشى الخمر فى المفاصل

بل أريد أن أقول انى عرفتك الآن حق العرفان وعرفت كل غرائبك وأيقنت ان حبك قوام حياتى فاذا

صددتني أولم تأذني أن أتمادى فى هذا الحب أصبحت من غير عقل

قالت ولكن ألا تعلم أيها المنكود من أنا أم لعلك من كبار الأغنياء ألا تعلم انى انفق فى الشهر عشرة آلاف فرنك وان هذه النفقات قد الفتها حتى لم يعد يسعنى الاقتصاد ولم يبق لى بد منها ألا تعلم أيها الصديق انى ازج بك الى مهاوى الافلاس فى زمن قريب فيحول أهلك بيننا ويمنعونك عن عشرتى

أنى آذن لك ان تحبنى كصديق ولك ان تزورنى حين تشاء ولكن احذر ان تتجاوز هذا الحد

وتعال حين تريد نلهو ونضحك ولا تبالغ بتقديرى فانى لا أسوى الكلمات التى تتكلف فى قولها لى

انك طاهر القلب رقيق الشعور وحيف على مثل قلبك ان يدنس بحب امثالنا فتزوج خير لك ولو لم يكن قلبى نقياً كقلبك لما خاطبتك بمثل هذا الجلاء

وعند ذلك اقبلت بريدانس تقول

ماذا تصنعان هنا وما هذا الابطاء

فقالت لها مرغريت

اننا نتحدث فى شأن هام فـدعينا هنيهة يا بريدانس

وعادت الىّ فقالت

اذن لقد اتفقنا على ان لا تحبنى حب عشق بل حب صديق

قلت بل أهجر هذه البلاد

قالت ألى هذا الحد

وكنت قد اندفعت مع هذا التيار فلم يبق سبيل الى الرجوع ثم ان هذه الفتاة كانت قد بلغت منى ما أراده جمالها وماكتنى بحبها فقلت فى نفسى

انى اذا لم أجعل لنفسى سلطاناً عليها لأول وهلة فقدتها وكنت بعدئذ فى حبها من الهالكين .

أما هى فقد نظرت الىّ بدلال وادلال وقالت

أتقول الجد يا ارماز

— قلت ألا ترين من عينى ان قلبى الذى يتحدث وانى لست من المازحين

— ولكن كيف لم تبح لى بغرامك من قبل

— ومتى تريدين ان ابوح به

— فى اليوم التالى لاجتماعنا فى الاوبرا

— لقد خطر ى ذلك ولكنى خشيت ان لا تأذنى بمقابلتى

— لماذا

— لأنى ارق فى عينيك تلك الليلة ولانك حسبتنى من البابياء

— هذا اكيد ومع ذلك فقد كنت تحبنى فى ذلك العهد

— كما أحبك اليوم

— هو ذاك بدليل انك ذهبت فى تلك الليلة فنمت ملء جفنيك كما ينام الخليون

— بل انك واهمة أتعلمين ماذا صنعت فى تلك الليلة

— ماذا ؟

— انى انتظرتك عند باب القهوة الانكليزية وتبعت مركبتك وكان يصحبك رجلا فلما وصلت الى منزلك ودخلت اليه وحدك خلت انى من السعداء

فضحكت ضحكا طويلا وقلت لها مما تضحكين

قالت لا شيء

— بل قولى او احسب انك عدت الى العبث بى

— ألا تستاء لما أقول

— كلا اذ لا يحق لى ان استاء

— إذن فاعلم انى ما دخلت الى منزلى وحدى من غير سبب

— ما هو هذا السبب

— هو انه كان يوجد من ينتظرنى فى المنزل

فوقع هذا القول على وقع الصاعقة فقمت وقلت لها استودعك الله

قالت لقد كنت اتوقع منك هذا الاستياء فانكم معشر الرجال تذوبون لهفا لسماع ما لا يروق لكم ان تسمعوه

فقلت لها بلهجة اردت ان اظهر لها فيها انى شفيت من غرامى

ثقى انى لم استأ فلا ينكر عليك ان ينتظروك فى منزلك كما لا ينكر منى ان انصرف فى الساعة الثالثة

من الصباح

— ألك ايضا من ينتظرك فى منزلك

— كلا ولكن لا بد لى من الذهاب

— إذن استودعك الله

— اتطردينى

— حاشاى ان افعل

— إذن لماذا تعذيبنى هذا العذاب

— بماذا عذبتك

— كيف تقولين انه يوجد من ينتظرنى فى منزلى

— انى لم املك نفسى عن الضحك حين قولك لى انك وجدت نفسك سعيداً ليقينك انى دخلت إلى المنزل وحدى

— لا أنكر ان هذا القول كان من قبيل الخفة فلم يكن يجمل منك أن تنغصى هذا السرور الذى لقيته بل كان ينبغى أن تزيديه

— لمن تقول هذا القول يا أرمان أم تحسب أنى من العذارى ام من العقائل النبيلات

انى لم اعرفك قبل اليوم فكيف يحق لك ان تناقشنى

الحساب عن اعمالى السابقة

وهب انى اصبحت يوما خليلتك فلا بد لك ان تعلم انه كان لى من قبلك كثير من العشاق

وإذا كانت هذه غيرتك قبل ان نتعاهد فما يكون منك بعد العهد هذا اذا تعاهدنا. الحق انك لا نظير لك بين الرجال

— ذلك لأنه لا يوجد رجل يحبك كما احبك

— قل القول الصريح الآن يا ارمان احق انك تحبنى كما اقول

احبك حباً لو تحبين مثله اصابك من وجد على جنون

— متى بدأ هذا الحب

— منذ ثلاثة أعوام وقد رأيتك فى احد الخمارات قرب شارع البورصة

— اتعلم انه حب نادر وانه طاب لى ان ادوره فبماذا تريد ان اكافئك عن حبك الصادق

— بأن تحبينى قليلا

— والدوق

— اى دوق

ـــ ذلك العجوز الذى يغار علىّ كأنه يحبنى حب غرام

ـ لا ندعه يعلم بشىء من امرنا

ـ وإذا عرفه

ـ يغفر لك

ـ بل انه يتخلى عنى فقد غفر لى كثيرا ومتى تخلى عنى فما يكون مصيرى

الم تخاطرى بهذا التخلى من اجل سواى

ـ كيف عرفت ذلك

ـ من قولك ابريدانس لا تدعى احدا يدخل الينا فى هذه الليلة

ـ ولكنى لم اقل لها هذا القول الا لأستقبلك مع صديقك فكيف تؤنبنى

وكنت قد دنوت منها فى خلال الحديث فطوقت خصرها بيدى وقلت لها بصوت يشبه الهمس

أواه لو تعلمين كم أحبك

ـ احق ما تقول

ـ أقسم لك بكل عزيز فى الارض ومقدس فى السماء

ـ إذن اعلم انك إذا وعدتني وعداً أكيداً صادقا أن تعمل بارادتي فلا تعترضني فى شىء ولا تسألني عن شىء فقد أحببتك

ـ أعدك أصدق وعد.

ـ ولكني أحذرك منذ [illegible] أن أكون حرة كالطائر فى الجو افعل ما يروق لي فعله دون أن يحق لك سؤالى عن شىء مما افعل فانى من عهد طويل ابحث عن فتى لا يكون له اراده وعن عشيق دون غيرة وعن محبوب لا يكون له علىّ شىء من الحق فلم اظفر ببغيتى

فانكم معشر الرجال لا تكادون تنالون شيئاً مما كنتم ترجون نيله حتى يبلغ منكم الطمع انكم تحاولون مناقشتنا الحساب عن الماضى والحاضر حتى عن المستقبل بل انكم تتمادون فى حب الذات حتى تحاولون أن يكون لكم علينا مطلق السلطان

أما أنا فانى إذا عولت على أن اتخذ عشيقا فأريد أن يكون له هذه الصفات الثلاث وهى

الثقة والخضوع وعدم الفضول

ـ سأكون هذا الرجل إذا أردت

ـ سوف نرى

ـ متى

ـ فى غير اليوم

ـ لماذا

فتخلصت مرغريت منى وقامت الى منضدة فأخذت عنها باقة حمراء من زهر الكاميليا فانتزعت زهرة منها فوضعتها فى عروة ثوبى وقالت

ذلك لأنه لا يمكن تنفيذ المعاهدات يوم عقدها

فضممتها إلى صدرى وقلت لها

إذن متى أراك

قالت متى تغير لون هذه الزهرة

ـ ومتى يتغير لونها

ـ غداً من الساعة الحادية العشرة الى انتصاف الليل أرضيت الآن

ـ وأنت أتسألينني إذا كنت راضيا بعد أن أنعمت علىّ بالحياة

ـ أحذر أن تفوه بكلمة مما كان بيننا ولاسيما لغاستون وبريدانس

ـ اعاهدك على الكتمان

ـ اذن عانقني ولنذهب الى قاعة الطعام

ثم ادنت شفتيها من شفتي وخرجنا بعد ذلك الى المائدة أما هي فكانت تغني واما انا فقد كنت شبه المجانين

وبينما كنا على المائدة رأيتها قد استرسلت هنيهة الى التفكير ثم قالت لي همساً

انك قد تعجب لتسرعي بموافقتك على ما أردت أتعلم كيف كان ذلك

وقد أخذت يدي فوضعتها على قلبها بحيث شعرت بخفوقه الشديد وقالت لي

ذلك قد تولد من معرفتي بقصر أجلي فأردت ان اسرع بهذا الاجل

قلت أتوسل اليك ان لاتعيدى على مثل هذه الاقوال

فضحكت وقالت

لاتيأس ايها الحبيب فانه مهما قصرت أيامي فستكون

أطول من أيام حياتي

وعند ذلك [illegible] وانصرفنا

[illegible] العربة [illegible]

[illegible]

[illegible] بعجب

[illegible]

ـ هل علمت لها ذلك

ـ نعم

ـ أوعدتك بتصديق قولك

ـ كلا

ـ إذن لقد كنت أسعد حظا منك مع بريدانس فانه وإن كانت قد بلغت الاربعين فهي لا تزال كأنها في مقتبل الشباب

١١

وعدت الى منزلى فلم يسعنى الرقاد لاضطرابى الا بعد أن تعالى النهار وخرجت بعد الظهر فذهبت توا الى الغابات ليقيني انها تتنزه هناك فى كل يوم فرأيتها كما كنت اراها فى كل يوم

وفى المساء تأنقت فى ملابسى ووقفت على زينتى نحو ثلاث ساعات وصبرت وانا كأنى على جمر إلى ان بلغت الساعة العاشرة ونصف فقلت لقد حان الوقت ولا بد لى من نصف ساعة لاجتياز الطريق من منزلى الى منزلها فلم اركب مركبة بل ذهبت ماشيا كى اصل فى الوقت المعين

وقد نظرت حين وصولى إلى نوافذ المنزل فوجدت نورا ينبعث منها فطرقت الباب وسألت البواب عن مرغريت

فقال لى انها لا تعود ابدا قبل الساعة الحادية عشرة

فنظرت فى ساعتى فوجدت انى اجتزت المسافة بين منزلى ومنزلها بخمس دقائق وانا اتوهم انه يقتضى لى

نصف ساعة

وقد جعلت اسير فى ذلك الشارع المقفر ذهابا وايابا فكانت الدقائق تمر بى مرور الادهار

الى ان اقبلت مركبتها وخرجت منها فدنوت وحييتها فردت تحيتى بألطف ابتسام وقالت لى

اهذا انت

قلت نعم ألم تأذنى لى بزيارتك هذه الليلة

قالت لقد أصبت ولكنى نسيت

والله يعلم مالقيت من العذاب لجوابها الذى ضعضع آمالى ولكنى كنت بدأت اذاعرف طباعها فكبحت جماح نفسى ولم اندفع كما فعلت فى أول مرة

ثم دخلنا الى المنزل فسألت الخادمة قائلة

هل عادت بريدانس

قالت كلا

قالت اذهبى وقولى لخادمتها ترسلها الىّ حين حضورها وقبل أن تذهبى اطفئى مصابيح قاعة الاستقبال واذا جاء أحد لزيارتى قولى انى لم اعد بعد وانى لن أعود

ثم قالت لى تعال ودخلت بى الى غرفة فنزعت رداءها وجلست على كرسى كبير بجانب المستوقد فقالت

قل ماوراءك من الاخبار

قلت لا شىء سوى انى اخطأت بقدومى هذه الليلة

— لماذا

— لأنى أراك قلقة واخاف ان تسأمى منى

— كلا انك لا تضجرنى ولكنى مريضة وقد تعبت كثيراً فى النهار فاصبت بصداع حرمنى النوم

— اتريدين ان انصرف فتستريحين بالرقاد

— ذلك لا يحملك على الانصراف فاذا أردت الرقاد نمت امامك

وعند ذلك طرق الباب فقالت وقد تبين فى صوتها الجزع ونفاد الصبر

من هذا القادم

ثم تكرر الطرق فقالت أف الا يوجد من يفتح الباب أم يجب ان افتحه بيدي

وقد نهضت من فورها فقالت لى ابق هنا

وذهبت فسمعت صوت فتح الباب واصغيت فسمعت صوتا خارجا من قاعة الطعام عرفت انه صوت الكونت وسمعته يقول لها

كيف انت الليلة

فاجابته بـ... اجفاء انى على اسوأ حال

— ازعجك حضورى

— ربما

— لله من جفائك يا مرغريت اهكذا تلقينني وماذا اسأت اليك

— انت لم تسيء إلىّ بشيء ولكني مريضة ولا بد لى من الرقاد فحبذا لو انصرفت

وبعد فماذا تريد منى فانى لا اكاد ادخل الى منزلى حتى رأيتك دخلت فى اثرى ألم اقل لك مائة مرة انى لن اكون خليلتك وانه خير لك ان تبحث عن سواى

والآن فانى اعيد عليك ما طالما قلته لك فلا ترهقنى بمطالبك فقد آن لك ان تعرف ما انا عليه

وهذه الخادمة قد عادت فهى ستنير طريقك

فاستودعك الله

ثم تركته دون ان تدع له مجالا للقول وعادت الى الغرفة التى كنت فيها

وبعد هنيهة اقبلت الخادمة فقالت لها مرغريت

أأمرك فى كل مرة يأتى بها هذا الكونت ان تقولى له انى لست فى المنزل فقد طالما الفاه منه حتى ضاق نطاق الصبر فاقد سأمت هذا العيش وتواتر العشاق يقتلوننى صبرا وهم يحسبون انهم يحسنون بما ينقدوننى اياه

وان كل من تزاول مهنتنا الشائنة تعرف شقاءنا فيها ولخير لنا الف مرة ان نكون من خادمات الغرف

ولكن الغرور ينولانا فنتوق الى الملابس الانيقة والمركبات الجميلة والجواهر اللامعة ونحن لا نعلم ما وراء ذلك من الشقاء وحسبك ان الجسم يعتل والجمال يغضب والقلب ينكسر ثم تأتى تلك الساعة الرهيبة حين يذهب الصبى فنصبح فى عيون الناس أذل من الذل بعد أن نكون القينا بالفتيات وبأنفسنا الى حضيض الهاوية

وقد أرادت الخادمة أن تعزيها فأسكتتها بقولها

اسرعی واتتینی بشی من الفاكهة والشراب وبجانح دجاجة وماتیسرفانی شدیدة الجوع

وأنت یا ارمان فستأكل معی فتلهی الآن بكأس من الشراب الى ان أعود اليك

ثم تركتنی وذهبت إلى غرفة أخرى فأخذت أتمعن فی أمرها وبكل ما اسمعه من اقوالها فلم يكن ذلك إلا ليزيدنی غراما

وفيما أنا أسير فی تلك الغرفة ذهاباً واياباً دخلت بريدانس ودهشت حين رأتنی فقالت

أأنت هنا واين مرغريت

— فی غرفة زينتها

— سانتظرها وبعد فانها اصبحت كثيرة الميل اليك عرفت ذلك

— كلا

— ألم تشر اليك عن رضاها

— لم تقل كلمة

— اذن كيف اتفق وجودك عندها

— لقد اتيت لزيارتها زيارة بسيطة

— اعند انتصاف الليل تكون هذه الزيارات

— ان من ينام فى النهار هل يستطيع ان يزور الا فى الليل

— كلا فانك من الكاذبين ويستحيل ان تكون هذه الزيارة من غير موعد

— بل انك واهمة يا بريدانس فانها اساءت استقبالى

— سوف تحسنه

— اواثقة مما تقولين

— كل الثقة

— اذن لقد حدثتك عنى

— نعم فقد اطلنا الحديث بشأنك امس بعد انصرافك فسألتنى من انت وماذا تصنع ومن كان لك من الخليلات وكل ما يمكن سؤاله عمن كان له عمرك فاجبتها بما اعرفه عنك بما تستحقه من الثناء

وعند ذلك عادت مرغريت فسألت بريدانس قائلة

— هل رأيت الدوق

قال نعم

— ماذا قال لك

— انه اعطانى

— كم

— ستة آلاف

— أأحضرت القيمة

— نعم

— مسكين هذا الدوق

ثم أخذت المال بريدانس وسألتها قائلة

هل أنت فى حاجة إلى النقود

قالت انك تعلمين يا ابنتى انه قد استحقت أجرة منزلى فاذا اردت ان تسلفينى اربعمائة فرنك شكرتك ما حييت

قالت لك ما اردت فهل تتعشين معنا

قالت كلا فان شارلى ينتظرنى

ثم ودعتنا وانصرفت فوضعت مرغريت أموال الدوق فى درج وقالت لى وقدمشت إلى سريرها وهى تبتسم

أتأذن لي أن أضطجع

قالت بل ارجوك ان تفعل

قالت إذن تعالى فاجلس على هذا الكرسي بجانبي ولنتحدث

وكأنما ورود هذا المال من السوق قد أعاد اليها زهوها بعد

الانقباض وغير اخلاقها فأخذت بدى بيدها وقالت

ارجوك ان تغفر لي ما رأيته من سوء أخلاقي في هذه الليلة

قال انى مستعد لأن اغفر لك أكثر من ذلك

— وبعد ذلك أتحبنى

— حبا لا يصفه بيان ولا تحيط به الاقلام

— بالرغم عن سوء طباعى

— بالرغم عن كل شيء

— أتقسم على ما تقول

— اقسم بك وكفى بذلك قسما

وعند ذلك دخلت الخادمة بالطعام والشراب فأمرتها

ان تضع المائدة بجانب السرير وقالت لها

انك محتاجة الى الرقاد يا نانين فاذهبي فلست محتاجة

اليك في شيء

قالت أأقفل الباب الخارجى

قالت دون شك واخبرى البواب ان لا يدع احدا يدخل إلى منزلى قبل ظهر غد

١٢

وفى الساعة الخامسة عند ما توهج الصباح قالت لى مرغريت لم يبق بد من انصرافك الآن أيها الحبيب فان الدوق يزورنى فى كل صباح فاذا قيل له أنى لا أزال نائمة صبر إلى أن استفيق فتزودت منها بالقبلة الأخيرة وقلت لها متى اراك

قالت اصغى إلى ياارمان وخذ هذا المفتاح الذهبى الصغير التى تجده على المستوقد واذهب فافتح به هذا الباب ثم ارجع المفتاح إلى موضعه وانصرف

واليوم أرسل اليك كتابا فى النهار يحتوى على أوامرى فقد وعدتنى بالامتثال اليس كذلك

— هو ذاك ولكن بقى لى رجاء أبسطه لك

— ما هو

— هو أن تدعى لى هذا المفتاح

— انها بغية لم ينلها أحد بعد

— إسمحى لى أن أنالها دون سواى فانى لا أحبك كما أحبوك

— إذن خذه فهو لك ولكنى غير مسئولة عنه إذا لم يفتح

— كيف ذاك

— ذلك ان المزلاج قد يعترضه من الداخل

— كلا انك لا تفعلين وسترفعين المزلاج

— سأفعل أكثر من ذلك

— اذن انت تحبيننى

— يظهر انى احبك ولا اعلم كيف اتفق ذلك فاذهب بالله فان النعاس يكاد يقتلنى

فودعتها وانصرفت وانا احسب نفسى أسعد خلق الله حتى انى كنت اسير فى الشوارع التى كانت لا تزال مقفرة وانا أخال ان باريس بجملتها وبقومها تحت مطلق

سلطانى وان لا سعادة بعد ما نلته من سعادتى فى تلك الليلة فقد كنت منها فى جنات النعيم

وكنت اردد فى ذاكرتى اسماء الذين طالما غبطتهم لهنائهم فما ذكرت واحداً منهم الا وجدت نفسى أسعد منه

وان الفتى قد يغبط نفسه اذا وفق الى الظفر بقلب فتاة طاهرة وكان اول من ارشدها الى ذلك الطريق الخفى طريق الحب وكشف لها دقائقه السرية

غير ان ذلك امر بسيط لا يتطلب كثيراً من العناء وما مثل هذا الظافر الا مثل القائد يفتتح مدينة لا حامية فيها

ولا ينكر ان للتربية وللعائلة شأناً عظيما فى وقاية الفتاة ولكن لصوت الفتيات تأثير على قلوبهن أشد من تأثير التربية وكلما رقت عواطف الفتاة الشريفة كلما سهل انقيادها اذا لم يكن للمحبوب فالحب فى نظر لفتى فى مقتبل الشباب إذا فاز بقلب بسيط طاهر مثل قلب تلك الفتاة

وهذا لا ريب فيه بدليل ما نراه من اهتمام الأمهات ببناتهن وملازماتهن فى كل مجتمع وقاية لهن من خطر السقوط

ولكن اين هذه الفتاه الطاهرة من تلك المومس التى

أفسد جسمها نفسها وأتلف شعورها قلبها وقتل تهتكها حواسها فان من يفوز بقلبها كان كالفاتح يغتصب مدينة محصنة بالحصون والأسوار

واية كلمة تقولها للمومس لم تكن سمعتها من قبل واى حيلة تريد اغواءها بها لا تكون قد عرفتها حتى ان ذلك الحب نفسه الذى تمنحه انما تبيعه بيعا فهى تتخذ الحب مهنة فتقيها التجربة والاختبار

وكفى انها تتخذ الحب تجارة فاذا تصدقت مرة بحب صادق فانما تفعل ذلك من قبيل السلوى شأن ذلك المرابى الذى يسلب الألوف من الناس إذا اسلف فقيراً ديناراً من غير ربى أو أعطاه إياه من غير وصول خيل له أنه اشترى ذنوبه السابقة بهذا الصنيع

ثم ان الله جل جلاله حين يوحى الحب الى قلب المومس يظهر فى البدء ان ذلك من قبيل الغفران

والحق انه من قبيل العقاب فلا غفران من غير توبة وندم ويكفيها انها حين تبوح بحبها الأكيد لمن تهواه ان يشكك فى ما تقول فقد طالما قالت مثله حين كان حبها تجارة

ولا يكون مثلها إلا مثل ذلك الولد الذى جعل يستنجد من الذئب فلما اسرعوا إلى نجدته لم يجدوا ذئباً وعلموا أنه اراد العبث بهم ثم جاءه الذئب حقيقة فلما استغاث لم يجد مغيثاً بعد ما عرفوه من كذبه فافترسه الذئب

وهكذا تلك المومس فانها طالما كذبت بغرامها فلما صدق قلبها فيه لم تجد من يثق بقولها فافترسها الهم والحب وتقريع الضمير كما افترس الذئب ذلك الكاذب الصغير

ولنعد الآن إلى سياق الحديث فانى عدت إلى منزلى وأنا أرى الدنيا تضحك لى مهنئة إياى بنعيمى

وما كان يروعنى غير كثرة السرور فقد كنت أخاف من الحسد حتى من نفسى

وكنت اناجى نفسى فأقول

اما أن تكون مرغريت من امهر النساء فتمكنت من خداعى او تكون صادقة فى حبها وهو الارجح اذ أى غرض لها من خديعتى وهى تعلم انى لست من اصحاب الملايين

وقد غفوت وانا أحلم بحوادث تلك الليلة فلما صحوت

دخل الى الخادم بكتاب منها تقول فيه

« هذه هي أوامرى . اذهب الليلة الى ملعب فودفيل

« حيث اكون فى خلال الفصل الثالث »

«م . غ»

فامتثلت لامرها وذهبت الى ذلك الملعب قبل ان يذهب اليه أحد من الناس فلما بدأوا تمثيل الفصل الثالث رأيت باب لوجها قد فتح ثم رأيتها دخلت اليه وقد لبست ثوباً أبيض كانت فيه فتنة الابصار

ودخلت فى اثرها بريدانس يصحبها رجل عرفت انه الكونت دى ج. فشعرت ان الدم جمد فى عروقى حين رأيته جلس بجانب مرغريت

ولا شك انها عرفت ما تولانى من الاضطراب لما رأته من اصفرار وجهى

فابتسمت لى ابتسامة ساحرة وأدارت ظهرها للكونت موهمة إياه انها تنظر الى الممثلين

فلما انتهى الفصل الثالث التفتت الى الكونت وكلمته فقام من فوره وخرج من اللوج وأشارت الى ان اصعد اليها

فلما صعدت سألتنى ان اجلس فقلت لها

أأجلس فى مكان الكونت ام انه لا يعود

قالت بل انه سيعود قريباً فقد ارسلته يشترى لى حلوى قصد إبعاده كى نتمكن من التحدث هنيهة فان بريدانس واقفة على امرنا

ثم وقفت وتقدمت فى داخل اللوج فقبلت جبينى وهى تحدق فى وجهى

ما هذا الاصفرار الذى يتولاك العلك مريض

قلت ربما فلست كما يرام

— اذن اسرع واسترح بالرقاد

— اين تريدين ان انام

— فى منزلك

— انك تعلمين يقيناً بأنى لا أنام فيه

— اذن لا يجب ان تستاء لوجود رجل معى

— ليس هذا الذى يسؤنى

— بل ان الغيرة قد لسعتك فقد بت اعرفك حق العرفان واعلم الآن انى أريد ان تذهب بعد انهاء التمثيل

الى منزل بريدانس فتقيم فيه الى أن أدعوك

— سأمتثل اذ لا يسعنى غير الامتثال

— ألا تزال تحبنى يا ارمان

— وأنت كيف تسأليننى هذا السؤال

— الماذا افتكرت بى اليوم

— مثل كل يوم

— أتعلم انى أصبحت اخشى أن أهيم بك . سل بريدانس فهى تخبرك الحقيقة

والآن اسرع بالذهاب فان الكونت عائد ولا أحب ان يجدك هنا

ـ لماذا

ـ لأنك يسؤك ان تراه

— كلا ولكنك لو أخبرتنى انك تريدين الحضور هذه الليلة إلى الملعب لأرسلت لك تذكرة نوج كما فعل الكونت

— الحق انه أرسلها إلى دون أن أسأله وطلب إلى أن يصحبنى فلم يسعنى رفض طلبه

وكل ما استطعت فعله هو انى كتبت اليك أخبرك أين اكون لتوافينى إذ يسرنى أن أراك فاذا كان هذا جزائى منك فسأستفيد من هذا العقاب فلا أعود إلى مثل هذا الذنب بعد الآن

— .. نى .تر بخطائى فاغفرى لى يا مرغريت

— لقد عاد اليك هداك والحمد لله فعد إلى موضعك واحذر من الغيرة فانها منغصة كل عيش

١٣

ولما انتهى التمثيل ذهبت مسرعاً إلى منزل بريدانس فلم تكن هنيهة حتى أقبلت وقالت لى لقد أسرعت حتى سبقتنا

قلت نعم فأين هى مرغريت

قالت فى منزلها

قلت اهى وحدها

قالت كلا بل مع الكونت

فجعلت أسير في الغرفة سيراً مضطرباً فقالت لي وهي تبتسم

ما بالك أيها العاشق الغيور

قلت أتنكرين عليّ غيرتي أم تحسبين انه يروق لي ان أنتظر هذا الكونت إلى ان يخرج من منزل من أحب

قالت اسمع اليّ يابني فانك مخطئ في ظنك واعلم ان مرغريت لا تستطيع طرد هذا الكونت وهو صديقها من عهد بعيد وطالما انفق عليها عن سعة وهو لا يزال يدر عليها هباته إلى الآن

ثم لابد لك ان تعلم ان مرغريت تنفق مائة الف فرنك أو تزيد في العام وهي مع ذلك قد اثقلت كاهلها الديون

ونعم ان الدوق يعطيها كل ما تطلبه ولكنها لا تجسر ان تسأله كل ما تحتاج اليه

ولذلك لا يسعها ان تصد الكونت لأنها تكسب منه ما لا يقل عن خمسة عشر الف فرنك في العام

واعلم يقينا ايها الصديق ان مرغريت تحبك أصدق حب ولكن مصلحتك ومصلحتها تقضيان عليكما ان لا تنظرا

إلى هذا الحب بعين الجد كما تفعل الآن فانك لا تستطيع ان تكفيها بايرادك وهو لا يتجاوز سبعة آلاف فرنك فى العام بين ان هذا الايراد لا يكفى لنفقات مركبتها

ونصيحتى اليك ان تنظر إلى مرغريت كما هى وان تكون عشيقها شهراً او شهرين دون قيد ولا شروط وان تقتصر فى نفقاتك على شراء الازهار والحلوى وتذاكر الملاعب الى غير ذلك من هذه النفقات الممكنة دون أن تمزق فؤادك بهذه الغيرة المضحكة

وبعد فانك ظفرت بغادة تعد فى الجمال آية ويجثو عند قدميها أصحاب الملايين فينفقون عليها الالوف وهى تعبث بهم وتحبك دون ان تأذن لك بانفاق درهم عليها فما عساك تريد بعد هذا

قلت لقد اصبت فى كل ما تقولين ولكن الغيرة علة خفية من امراض النفس كما يظهر فانى لا يخطر لى ان هذا الكونت عندها وانه عشيقها حتى يهيج الدم فى عروق وأصبح كالمجانين

قالت لا يجب ان تمادى فى مجال الظنون فما هذا

الكونت بعشيقها كما تتوهم ولكنها محتاجة اليه

وقد جاءها منذ يومين فلم تقابله محتجة بمرضها فعاد اليها في هذا الصباح فلم تجد مندوحة عن استقباله ثم ذهب وإياها إلى الملعب وعاد بها الى منزلها فأية غرابة في كل هذا

وبعد فانك لا تنكر عليها استقبال الدوق وأي فرق بين الاثنين

قلت ان الفرق بينهما ظاهر فان الدوق قد تجاوز عهد الغرام خلافاً للكونت وبعد فاذا رضيت بواحد فهل يتخذ رضاي حجة للرضى باثنين

قالت انك لا تزال على غيك فاصغ إلى الآن فهذا آخر ما أقوله في هذا الباب

إن المرأة التي تكون على شاكلة مرغريت والتي تنفق تلك المبالغ الطائلة كما علمت لا تستطيع الاقتصار على رجل فرد في سبيل كسب نفقاتها مهما بلغت ثروته

خذ مثالا لذلك رجلا يبلغ دخله السنوي خمسمائة الف فرنك ومن تكون هذه ثروته في فرنسا يكون من أعظم أغنيائها فان مثل هـذا الرجل على غناه لا يستطيع اكفاء

• مرغريت فاعلم لماذا

إن هذا الرجل الذى يكون له مثل هذه الثروة لا بد أن يكون له قصر وخدم ومركبات وهو يكون غالبا من المتزوجين ويكون له أسرة ويصيد ويقامر ويسافر ويلهو وكثير غير ذلك مما لا يقع تحت حصر

وكل ذلك يدعو الى نفقات لا يستطيع التجاوز عن شىء منها فاذا اخرجنا تلك النفقات من دخله لا يبقى له مما يستطيع منحه للغانيات اكثر من اربعين أو خمسين الف فرنك

بل انه قدر كثير لا يوجد من يتبرع به إلا إذا كان من امثال الدوق

فاذا كان أغنى أغنياء هذه البلاد لا يستطيع سداد كل نفقات مرغريت فكيف نريد أن تقتصر عليه وكيف تسدد عجز نفقاتها

فهذا الدوق قد هبط انيها من السماء ولكنه لا يعطيها اكثر من ستين الف فرنك فى العام مع كل عطفه عليها

وبعد فلنفترض أن مرغريت تدلهت فى حبك حتى تخلت فى سبيلك عن الكونت وعن الدوق متى شعر الدوق

انها تحبك وسألها أن تختار بينك وبينه ألا تكون قد ضحت نفسها فى سبيلك وماذا نعوض عليها عن هذه التضحية

انك لا تستطيع التعويض عليها بشىء بل تكون أبعدتها عن قوم تجد بينهم ثروة تضمن لها مستقبلها

ثم انك تقطف زهرة صباها وبعد أن تعطيك خير أعوام شبابها وينساها عشاقها تصبح معك على حالة من اثنتين وهما

اما ان تكون رجلا من السوقة الذين لا خلاق لهم فتسفها بما فيها وتقول لها انك ما فعلت الا ما يفعله سائر عشاق الغانيات فتدعها فى أشد حالات الشقاء

واما ان تكون من أشراف الناس وكرامهم فتحتفظ بها وتعيش شقيا منكودا بقية حياتك فان الفتيان قد يلتمسون لهم بعض العذر بعيشهم مع الغوانى خلافا لمن تجاوز عهد الصبى فلا عذر له امام نفسه ولا امام الناس

هذا ما أقوله لك على سبيل النصيحة فاضحك وتمتع بملاذ الحياة فما خلقت هذه الملذات الا لأهل الصبى ورجائى أن أكون هديتك إلى محجة الصواب

والآن هلم بنا إلى النافذة لترى. منها الكونت حين ذهابه

وقد قامت إلى النافذة ففتحتها ووقفت إياها عندها وأنا أتمعن بما سمعته منها فأجد انها نطقت بلباب الصواب ولكن كل ذلك كان فوق احتمالي فكنت أتنهد من حين الى حين تنهد القانطين

إلى أن خرج الكونت فركب مركبته وانصرف فسمعت عند ذلك مرغريت تنادي بريدانس فتقول

اسرعا فقد أعددنا العشاء

ولما دخلت إلى منزلها أسرعت إليّ وعانقتني عناقا طويلا ثم قالت لي وهي تضحك

كيف أنت والغيرة

فأجابتها بريدانس قائلة

لقد شفيته منها باذن الله

قالت إذن اهنئك بالشفاء فهلم إلى المائدة

وبعد العشاء انصرفت بريدانس وخلوت بمرغريت فجلست بجانب المستوقد حسب عادتها وقد استرسلت إلى التفكير فكنت أنظر اليها نظرات حب لا تصفها الاقلام

وأنا لا أجسر على محادثتها حذرا من أن أقطع حبل تصوراتها

ولكنها لم تلبث ان نظرت مبتسمة وقالت

اتعلم بماذا افكر يا أرمان

قلت كلا

ــ انى افكر بشروع أعددته

ــ ما هو

ــ لا أستطيع أن أطلعك عليه الآن ولكنى اخبرك بنتيجته وهى أنه لا يمر بى شهر حتى أصبح حرة غير مدينة لأحد بحيث استطيع قضاء فصل الصيف فى الريف

ــ ألا تقولين لى بأية واسطة

ــ كلا فكل ما يجب لنجاح هذا المشروع منوط بك وهو ان تحبنى كما احبك

ــ أأنت وحدك التى وجدت المشروع

ــ نعم

ــ اتنفذينه وحدك ايضا

ــ نعم فاننا نتنعم بهنائه معاً واما شقاؤه فأحتمله وحدى

— بل تأذنين لي ان اشترك بلاثنين

— ماذا تعني

— اعني اني أخاف ان يكون للكونت يد في هذا المشروع وهو ما لا أطيقه

— إنك لا تزال طفلا وكنت أحسب انك تحبني فاذا بي واهمة منخدعة

ثم تركتني وعلائم اليأس بين عينيها وقامت إلى البيانو فعزفت نغما محزنا شجيا فطر قلبي فدنوت منها واخذت رأسها بين يدي فقبلتها وقلت لها

عفوك اني مخطىء فاغفري لي

قالت لقد غفرت لك فان الحب غفور ولكن اعلم اننا لم نبلغ بعد اليوم الثاني من تعاهدنا واني احتجت فيهما الى ان اغفر لك فما يكون متى توغلنا في الصحبة أهكذا تفي بوعدك وانت القائل انك ستطيعني طاعة عمياء

— ما أصنع يا مرغريت وما حيلتي بنفسي فاني أحبك كثيراً حتى بت اغار عليك من فكرك بل حتى بت معك على حد قول الشاعر

أغار علىك من نظرى ومنى   ومنك ومن مكانك والزمان
ولو انى خبأتك فى عيونى   الى يوم القيامة ما كفانى

وان الذى اقترحته علىّ منذ هنيهة طفح قلبى به سروراً ولكنى ما لبثت ان رأيت ما يكتنفه من الاسرار حتى انقبض ذلك القلب

— ولكنك ان تمعنت قليلا لعلمت أنك واهم وان قلبك قد أخطأ فى انقباضه فانى ما أردت الجلاء عن باريس والاعتزال فى الخلاء الا من أجلك لأنى ارتكبت هذا الجنون فى حبك فاذا كنت تحبنى كما تقول فما عليك إلا ان تعد نفسك سعيداً مثلى بهذه الرحلة ولا تنظر إلى غير ذلك فهل تريد

— انك تعلمين يقيناً بأنى لا أريد الا ما تريدين

— إذن لا يمضى بنا شهر حتى نكون فى إحدى القرى نتنزه على شاطئ النهر ونشرب الحليب

ولقد تعجب لقولى أنا مرغريت التى لم يرق لها غير الحياة فى باريس ولكنى قروية كما تعلم وقد عشت الى أيام حداثتى فانى لست من بنات الاعيان وما تلقيت دروسى فى

سانت دينيس بل أنى نشأت فقيرة فى إحدى القرى و‌لم أكن أعرف أكتب إسمى منذ ستة أعوام . وقد ذهبت مرارا إلى القرى ولكنى لم أذهب اليها مرة كما كنت أريد . أما الآن فسأذهب وإياك وهذا الذى يجعلنى سعيدة فلا تكن عنيفاً بل قل فى نفسك

ان هذه المنكودة محتاجة إلى مثل هذا التفرغ وانى سأندم يوماً إذا لم أجبها إلى أول حاجة سألتنى قضاءها فقضاؤها سهل علىّ

فلم أجد ما أجيبها به وضممتها إلى صدرى فلو سألتنى فى تلك الساعة أن أرتكب جريمة لامتثلت

وفى الساعة السادسة من الصباح برحت منزلها وقلت لها حين تو ديعها إلى المساء

فعانقتنى عناقاً طويلا دون ان تجيب

وفى ذلك المساء تلقيت منها هذه الرسالة وهى

أيها الحبيب

لقد قمت اليوم متوعكة فأمرنى الطبيب بالراحة وعولت على ان أبكر فى الرقاد فلا أراك فى هذه الليلة

ولكنى اعوض عليك ماخسرته فانتظرنى غداً عند الظهر

أحبك

مرغريت

فكان أول ما خطر لى حين قرأت رسالتها انها تخدعنى فسال العرق البارد من جبينى لأنى كنت أحبها كثيراً وقد خلقت غيوراً

ومع ذلك فقد كان يجب ان اتوقع كل يوم مثل هذه الحادثة مع مرغريت فقد اتفق لى مثل ذلك مع خليلاتى فلم اكن اكترث هذا الاكتراث فكيف اتفق ان مرغريت سادت على حياتى كل هذه السيادة

ثم خطر لى ان اذهب اليها حسب العادة ما زال المفتاح معى فاعرف الحقيقة واذا رأيت عندها رجلا صفعته لامحالة

فلما استقر خاطرى على هذا هان بعض ما عندى وذهبت إلى الغابات فأقمت فيها إلى الساعة الرابعة على رجاء أن اراها فما اتت

وفى المساء ذهبت إلى جميع الملاعب التى تعودت ان تذهب اليها فما وجدتها حتى اذا بلغت الساعة الحادية عشرة

ذهبت ا . منزلها

و- بكن نور في نوافذ غرفتها و ع ذات د رقت ا باب وحاولت الدخول فسألني ابواب قائلا

إ- أين

قلت إ- الند، وازي غو . ،

قال انها - تعد بعد

قلت لا بأس فسأنتظر عودتها

قال ولكن لا يوجد أحد فى المنزل

فأيقنت انه تلقى الامر بأن يقول - ماقال وحاولت الدخول ذ كان المفتاح مى ولكنى خفت العاقبة نخرجت

على انى - أعد إلى منزلى إذ لم اكن أطيق مفارقة هذا الشارع جعلت أتجول فيه وأنا أراقب منزل مرغريت

إلى أن انتصف الليل ورأيت مركبة أقبلت فوقفت عند الباب ثم خرج منها الكونت ج فدخل إلى المنزل بعد أن اطلق مركبته

وكنت قد توهمت هنيبة إذ البواب سيقول له نفس ما قال لى ولكنه لم يقل له شيئا من هذا فلبثت إلى الساعة

الرابعة فى ذلك الشارع دون أن يخرج السكون من عندها

وقد تعذبت كثيراً منذ ثلاثة أسابيع ولكن كل ذلك العذاب لم يكن يذكر فى جانب عذابى هذه الليلة

١٥

وعدت إلى منزلى خاسراً قانطا فجعلت ابكى بكاء يعرفه كل من خدعته النساء إذ لا يوجد رجل لم تخدعه المرأة ولو مرة فى العمر

وعند ذلك عولت على الرجوع إلى أبى وأختى فأتمتع منهما بالحب الصادق الصحيح

ولكنى كرهت ان اسافر قبل أن أوقفها على سبب عدم سفرى فكتبت ومزقت نحو عشرين رسالة إلى ان اعتمدت على الرسالة الآتية وهى

عزيزتى مرغريت

أرجو ان يكون ما أصبت به أمس عارضا بسيطا وان يكون قد زال بالراحة

وقد أتيت فى الساعة الحادية عشرة إلى منزلك لأطمئن عليك فقال لى البواب انك لم تعودى بعد

على ان الكونت دو ج كان اسعد منى حظا بدليل ان البواب لم يقل له هذا القول وانه فى الساعة الرابعة من الصباح كان لا يزال باقيا عندك

وغاية ما ارجوه أن تغفرى لى اساءتى اليك فى ثلاث الساعات القليلة التى كنت اخال نفسى سعيداً فيها بقربك وثقى انى لا أنسى ذلك الهناء مدى الحياة

وكنت أود أن أحضر فاطمئن عليك اليوم ولكنى عزمت على الرجوع إلى أبى

الوداع أيتها العزيزة فما أنا من أهل الثروة العظيمة فأحبك كما اريد ولست من أهل الفقر المدقع فأحبك كما تريدين وانسى اسما كان لديك شبه منسى ولأنس هناء أجد فيه قوام حياتى

وانى مرسل لك فى طيه ذلك المفتاح الذى لم يتيسر لى استخدامه فقد ينفعك إذا مرضت غالبا كما مرضت أمس

ارمان

وانت ترى انى لم استطع ختم هذه الرسالة دون استعمال القحة وهو ما يدل بعد التمعن انى لا ازال من الهائمين

وقد قرأت هذا الكتاب مرارا فلم يكن يسرنى منه الا انه قد يسوءها ثم دفعته الى خادمى وأمرته ان يذهب به اليها

فقال لى هل يجب ان انتظر جوابا

قال اذا سألوك اتنتظر جوابا قل لا أعلم وانتظر

وكنت اتعزى برجائى انها تجيبنى فكنت فى انتظار عودة خادمى على احر من الجمر

فلما عاد قال لى انها نائمة

فخطر لى مرارا ان ارجعه فى طلب الكتابة ولكنى خشيت ان يكون قد اعطوها اياه فيكون شأنى فى طلب استرجاعه شأن النادم والحقيقة انى ندمت اشد الندم لما فعلت

ثم توالت الساعات الى ان حان الظهر فخطر لى ان اذهب اليها حسب الاتفاق كأنه لم يحدث شيء مما كان ولكنى لم اجسر على ذلك فخرجت بحجة الذهاب للطعام

فبدلا من ان اذهب الى المطعم الذى تعودت الغذاء فيه . ذهبت الى مطعم آخر لابد للوصول اليه من المرور بشارع انتين اى الشارع الذى تقيم فيه مرغريت على رجاء ان تكون اجابتى على رسالتى وان اجد خادمها فى الطريق فلم اجد بغيتى

وبعد الطعام عدت الى منزلى فصبرت فيه الى الساعة الخامسة وقد بلغ من طمعى انى رجوت ان تكون هى جواب رسالتى فتأتى الىّ فى منزلى حتى اذا يأست من جوابها ذهبت الى الغابات وانا اقول فى نفسى انى اذا رأيتها تكلفت عدم الاكتراث فتثق انها لم تعد تخطر لى فى بالى

واتفق انى مررت بمطفة فبوغت برؤية مركبتها وامتقع وجهى بصفرة الموت فلا اعلم إذا كانت رأتنى وانا على هذه الحال فقد بلغ من اضطرابى انى ما رأيت غير مركبتها

على انى لم اقنط من لقائها وجعلت اقرأ الاعلانات فى مواقفها فعلمت انهم سيمثلون رواية جديدة فى السراى الملكية وأيقنت ان مرغريت ستحضرها دون ريب

وفى الساعة السابعة ذهبت الى ذلك الملعب فوجدت جميع اللوجات قد امتلأت بالمتفرجين ولم اجد بينهم مرغريت وقد ذهبت الى اكثر الملاعب باحثا عنها فلم اجدها فهيأ لى الغرور ان اعتقد انها إما ان تكون تأثرت من كتابى الى ان لزمت الفراش وإما ان تكون خافت ان تلتقى بى فى مكان واحد حذراً من قوارص اللوم والتعنيف

وفيما انا عائد لقيت صديقى غاستون فسألنى قائلا

من أين انت قادم

قلت من ملعب السراى الملكية

قال لقد كنت احسبك قادما من الاوبرا

قلت لماذا

قال لأن مرغريت هناك

قلت اهى وحدها

قال لقد كان معها رفاق ولكن الكونت دى ج. لم يقم معها غير هنيهة ثم انصرف مع الدوق

وقد كنت أتوقع قدومك فى كل لحظة اذ كان يوجد بجانبى كرسى خال فحسبت انه لك

قلت ولكن لماذا تعتقد انى ذهب حيث تكون مرغريت

قال لأنك عشيقها

قلت من الذى اخبرك

قال بريدانس وفى اعتقادى انها الصديق فقد علمت انك محب محبوب فلا تضع مثل هذه الفرصة فانها خير ما يغتنم

فذهبت الى منزلى وانا اتعس خلق الله واشد نكداً وبت ليلة الملسوع لما ارتكبته من الخطأ

وفى الساعة التاسعة من الصباح خطر لى ان اذهب الى بريدانس فذهبت اليها وسألتنى عن سبب هذه الزيارة المبكرة

فلم اجسر ان أقول لها كل امرى بل اقتصرت على القول انى خرجت مبكراً لأستأجر مكاناً للسفر اذ قد عولت على الرجوع الى ابى

قالت انك سعيد باستطاعتك مغادرة باريس فى هذا الطقس الجميل

فنظرت اليها نظرة الفاحص وأنا اخشى ن كون
هازئة بي ولكن ملامحها كانت تدل على الجد فقالت لي
ألا تودع مرغريت
قلت كلا
— حسناً تفعل
— أترتأى اذن ان اذهب دون ان اودعها
— دون شك فأى معنى للوداع بعد قطع العلائق
— اذن لقد عرفت ما كان بيننا
— نعم فقد اطلعتني على رسائلك
— وماذا قالت لك في هذا الشأن
— قالت انك لم تستكمل شروط التهذيب فان مثل
هذه الرسائل تعرض في الخواطر ولكنهم لا يكتبونها
— بأية لهجة قالت هذا القول
— قالته وهي تضحك ثم اضافت اليه قولها
انه تعشى عندي مرتين فلم يزرني زيارة الهضم
— وماذا فعلت ليلة امس
— انها ذهبت الى الاوبرا

— لقد عرفت وبعد ذلك

— عادت الى منزلها فتعشت

— اتعشت وحدها

— كلا بل مع الكونت دي ج. كما أظن وعندى انه لا يجب ان تفتكر بهذه المرأة بعد الآن فهى لا تحبك

فابتسمت ابتسامة مغتصبة وقلت

سوف نرى اذا كان حقاً ما تقولين

قالت وعندى ايضاً انها مصيبة بعدم اكترائها فانها كانت تحبك حباً لا يوصف

— اذا كانت تحبنى حقيقة كما تقولين فلماذا لم تجبنى على رسائلى

— لأنها أيقنت انها مخطئة فى حبك وبعد فان المرأة قد تصفح عن الرجل حتى ولو خانها ولكنها لا تصفح عنه إذا جرح كبرياءها وتخلى عنها بعد عشرة يومين مهما كانت اسباب تخليه وانى اعرف مرغريت حق العرفان فهى تؤثر الموت على ان تجيبك على رسالتك

— اذن ما الذى يجب ان اصنعه

ـــ لا شيء سوى ان تنساها كما نسيتك

ـــ ولكني اكتب لها كتاب اعتذار

ـــ احذر ان تفعل فانها لاتقبل اعتذارك

فكدت اعانق بريدانس من فرط سروري

وبعد هنيهة كنت في منزلي فأرسلت الى مرغريت الرسالة الآتية وهي

« اني نادم لما بدر مني أمس فاذا لم تصفحي عني رحلت رحيل القانطين فهل تأذنين بلقائك لألقي ندامتي عند قدميك

ومتى تكونين وحدك فانك تعلمين ان الاعتراف لا يكون ثالث فيه ارمان »

وقد أرسلت هذه الرسالة مع خادمي فأخذها اليها فقالت له انها ستجيبني عليها

فخرجت من المنزل لقضاء بعض الحاجات وعدت اليه قبل الظهر بساعة فما وجدت جوابا منها

وعند ذلك عولت على الرحيل وجعلت اتلهى باعداد حقائب السفر

على انه لم يمر بي ساعة حتى سمعت الباب يطرق ثم دخل الى خادمي فقال

يوجد سيدتان في الباب

وكانتا قد دخلتا في اثر الخادم فسمعت صوتاً يقول هؤلاء نحن يا رمان فعرفت انه صوت بريدانس واسرعت بالخروج من غرفتي فوجدت بريدانس واقفة تنظر الى الصور المعلقة في القاعة ومرغريت جالسة على مقعد وهي مطرقة تفكر

فأسرعت الى الركوع امامها فأخذت يدها بين يدي فلثمتها وسألتها العفو

اما هي فانها قبلت جبيني وقالت لي

هذه هي المرة الثالثة التي اصفح فيها عنك بمدة يومين

قلت لقد كنت عازماً على الرحيل غداً

قالت وما الذي يثنيك عن عزمك فاني لم ازرك لامنعك عن السفر بل اتيت لاني ما تمكنت من مجاوبتك ولأني

كرهت ان تسافر وانت تعتقد انى حاقدة عليك حتى ان
ريدانس حاولت منعى عن هذه الزيارة خوفها ان القى عليك
قالت أأنت تقابلين على بامرغريت وكيف يكون ذلك
فأجابتنى بريدانس قائلة قد يتفق وجود امرأة عندك
فلا يروق لها ان تجمع بين امرأتين
فقلت لها لا يجمل بك يا بريدانس ان تقولي هذا القول
فغيرت الحديث وقالت
ان بيتك جميل فهل تأذن لى ان ارى غرفة النوم
قلت افعلى ما تشائين
ولما خلا لنا المكان قلت لمرغريت
لماذا صحبت معك بريدانس
قالت لأنها كانت معى قبل زيارتك فى معرض حضرناه
ولم يكن لى بد ممن يصحبنى اليه
— لماذا لم تأمرينى ان اصحبك
— لأنك اذا صحبتني اوصلتنى الى منزلى وهناك
لا استطيع ان آذن لك بالدخول فتذهب واجداً على
— لماذا لا تأذنين لى بالدخول

ـ لأن المراقبة شديدة على

ـ أهذا هو السبب الوحيد

ـ لو كان يوجد سبب آخر لأطلعتك عليه فلم يبق بيننا أسرار

ـ مرغريت انى لا احب ان اسلك المسالك المختلفة فى سبيل الوصول الى الحجة التى اريدها

لذلك اسألك بملء الجلاء فأقول

ـ اتحبيننى

ـ كثيراً

ـ اذن لماذا خدعتنى

ـ ارمان اصغ الىّ .. انى لو كان لى ايراد عظيم يفى بنفقاتى او لو كنت امرأة الدوق الفلانى لحق لك ان تسألنى لماذا خدعتك

ولكنى لا ادعى غير مرغريت غوتييه وليس لى من الثروة سوى انى مدينة بأربعين الف فرنك وانى انفق مائة الف فرنك فى العام فأى معنى لهذا السؤال الذى سألتنيه

ـ لقد صدقت يا مرغريت ولكني

أحبك حباً لو تحبين مثله
أصابك من وجد عليَّ جنون

— إذا كان ذلك أيها الحبيب فلا يبقى عليك الا واحد من أمرين وهما إما ان تنقص شيئا من حبك أو تزيد شيئا من معرفتك حقيقة حالى

إن كتابك أتعبنى أشد التعب ولو كان أمرى منوطا بنفسى لما استقبلت الكونت أول من أمس أو جئتك مستغفرة كما تستغفر أنت منى الآن وما كان لى فى مستقبل الأيام عشيق سواك

وكنت توهمت انى ظفرت بهذا النعيم وعرضت عليك أن نرتع فيه ستة أشهر ولكنك أردت أن تقف على حقيقة الأسباب

على ان هذه الأسباب لا تخفى على اللبيب فانى محتاجة الى عشرين ألف فرنك استعين بها على رحلتنا

وكان بوسعى أن أسألك هذه القيمة فلا تمنعها عنى ولكنى كرهت أن أثقل عاتقك بالدين وأنا أعرف معرفة المختبر ان الدين ذل فى النهار وهمٌّ فى الليل فرأيت أن أنالها

من سوالك فأى تنغيص عليك من هذا وأى كمد

على انك لو درست اخلاقنا نحن بنات الهوى لما كبر عليك ما فعلته من أجلك فاننا نبيع نفوسنا بيع السلع ولا نتعزى عن ذلك الا حين نحب حبا صادقا ننسى به كل ما نلاقيه

ثم ان لنا شذوذا لا تخطر فى بال فقد يأتينا المثرى العظيم ينفق علينا الألوف من الدنانير فلا ينال منا حظوة وقد ينالنا فتى بباقة من الزهر أما أنت فقد كنت أسرع الناس الى معرفة طريق قلبى وما ذلك إلا لأنك رأيتنى مريضة فأخذت يدى بين يديك وجعلت تبكى لهفاً واشفاقا علىّ فى حين انى لم أجد فى قلوب الذين عرفتهم ذرة من الاشفاق

وانى قائلة لك قولا لا يقال ولكنى اذكره لأنه حقيقة لا ريب فيها وهو انه كان لى كلب امين فكان كل مافاجأنى السعال ورآنى أتألم انقبض وجهه وظهرت علائم الحزن عليه فكان الحىّ الوحيد الذى أحببته

فلما مات بكيته اكثر مما بكيت أمى

وكذلك أنت فقد احببتك كما احببت كلبى بسبب ذلك

الاشفاق ولو كان الرجال يعلمون ماينالونه منا بدمعة بلغوا
مناما أرادوه ولما نلنا من جيوبهم النذر اليسير مما ننال

فأخذت يدها اقبلها وعدت الى الاستغفار واظهار
الندم وقلت لها

انسي كل ما مضى يا مرغريت فلا نذكر الا اننا
متعاشقان واننا لا نزال في مقتبل الشباب

واصنعي بي ما انت صانعة يا مرغريت فأنا عبدك
ومزقي ذلك الكتاب الذي ارسلته اليك ولا تدعيني اسافر
فاني اموت اذا سافرت

فأخرجت الرسالة من صدرها وقالت

ها هي اني اعيدها اليك فاحفظها كي لا نعود الى مثلها

قلت بل اني امزقها كي لا يبقى له أثر

وعند ذلك دخلت بريدانس فقالت لها مرغريت

أتعلمين ما يقولونه لي يا بريدانس

قالت العله يسألك العفو

قالت هو ذاك

— أغفرت له

— ذلك لابد منه ولكنه بسألنى سؤالا آخر

— ماذا يريد

— انه يريد ان يتعشى معنا

— ارضيت بذلك

— ماذا ترتأين

— أرى إنك واياه شبه الأطفال ، ثم أرى انى جائعة فكل ما أسرعت باجابته إلى ما طلب كل ما اقترب زمان الطعام

— إذن هلموا بنا فان المركبة تسع الثلاثة

وعند ذلك دخل خادمى وقال لى بلهجة تدل على السرور

مولاى لقد أعددت حقائب السفر

قات أعددتها كلها

قال نعم

قلت إذن أعد الثياب إلى مواضعها فى الخزائن فقد رجعت عن السفر

١٦

قال كاتب هذه الرواية وهنا توقف ارمان عن تتمة الحديث كى يستريح ثم عاد إلى اتمامه فقال

ولقد قلت لك ايها الصديق انى است من أهل الثروة فان ابى كان ولا يزال ملتزم الاعشار العام فى مقاطعتنا وهو معروف باخلاصه وصدقه وحسن وفائه فكان معدل كسبه فى العام أربعين الف فرنك

وقد تمكن منذ عشرة أعوام ان يعين مهراً لأختى وان يقتصد لجمع مايكفى ريعه لنفقاتنا

ثم ان أمى تركت لنا حين وفاتها دخلا سنويا يبلغ ستة آلاف فرنك قسمه أبى بينى وبين أختى

فلما بلغت من الرشد أضاف على حصتى من تركة أبى خمسة آلاف فرنك فى العام بحيث صار كل دخلى ثمانية آلاف فرنك

ثم أرسلنى إلى باريس على ان ادرس فيها الطب

أو الحقوق فدرست الحقوق وأخذت شهادة المحاماه وقبلت محاميا فى المجالس

ولكنى وضعت شهادتى فى درجى مكتفيا بنيلها ككثير من الفتيان امثالى فكنت أنفق الثمانية الاف فرنك فى خلال ثمانية اشهر والأشهر الأربعة الباقية أصرفها عند أبى

هذه هى كانت حالتى عندما علقت بمرغريت فكان إيرادى يكفى لكل نفقاتى

غير ان الحالة انقلبت بعد ذلك فان مرغريت لم تكن تدعونى إلى النفقات الباهظة ولكنى كنت انفق نفقات كثيرة لم تكن تنتبه لها اذ لم تكن تعدها شيئا مذكورا كاللوجات والازهار والحلوى والمتنزهات ومكافأة خدمها والطعام خارج المنزل .

مثال ذلك انها كانت تقترح على ان نتنزه غدا منذ الصباح فى المساء فنركب القطار او المركبة وهناك نتغدى ثم نتعشى ثم نعود الى الملعب فأنفق فى هذه الرحلة لا أقل من ١٥٠ فرنكا اى ثلاثة اضعاف دخلى وهى لا يخطر لها فى بال ان ذلك يؤثر على ميزانيتى

اما انا فانی لم یمر بی شهر حتی شعرت بالعجز ووقفت حائرا بين امرين خطيرين وهما اما ان استدين واما ان اتخلى عن مرغريت

على انى كنت اوثر الموت على فراقها فاستدنت ستة آلاف فرنك وخطر لى ان اتبع تلك العادة الذميمة التى كان عليها معظم الفتيان فى ذلك العهد وهى المقامرة

ولم اكن اقامر الا على رجاء ان احفظ توازنى وانجو من الدين وابقى مع من احب فكنت كمن يتداوى من الحب بالقمار فاذا زال الداء لا تبقى حاجة الى الدواء واذا شفيت من مرغريت شفيت من القمار

وقد ساعدنى الحظ وكنت من الرابحين فى اكثر الاحيان فلما مضى شهراً على ذلك انفقت فى خلاله من غير حساب وجدت انى املك اثنى عشر الف فرنك فانقطعت من فورى عن المقامرة وانصرفت الى مرغريت فكنت انفق عن سعة وانا احسب نفسى اسعد خلق الله

وقد اتفق يوماً ان مرغريت نهضت مبكرة فى الصباح وخطر لها ان تقضى النهار فى الخلاء فاتفقنا على الذهاب الى

قرية بوجيفال واعددنا معـدات الرحلة ثم ذهبنا تصحبنا بريدانس

ولا اذكر انه مرّ بى يوم فى حياتى افضـل من هذا اليوم فقد كانت مرغريت على أتم حالات الزهو والعافيـة وقد تورد خداها واتقدت عيناها واحمرت شفتاها فأقمت ذلك النهار بجملته على اتم صفاء

وقبل ان تأذن الشمس بالمغيب خطر لنا ان نتنزه على الشاطىء فما توغلنا قليلا فى السير حتى استوقفنا جمال بيت تكتنفه حديقة غناء فصاحت مرغريت منذهلة

لله ما أجمل هذا المنزل

فقالت لها بريدانس ألعله اعجبك

قالت كثيراً

قالت اذن قولى للدوق يستأجره فانى واثقة من قبوله وأنا أتعهد بهذه المهمة اذا كنت تريدين

فنظرت مرغريت إلىّ كأنها تستشيرنى بالنظر

فقات وأنا لا افقه ما كنت أقول بتأثرى من كلمات بريدانس

انه اقتراح جميل

قالت إذن هلم نر إذا كان معداً للأجرة

وقد وجدنا المنزل خاليا وان أجرته الفا فرنك فقالت لى

أتكون سعيداً فى هذا المنزل

قلت أأضمن ان أجىء اليه

— إذا كنت لا تكون فيه فكيف استأجره وكيف اعتزل باريس وأقيم فى هـذه القرية إذا لم يكن من أجلك

— إذن دعينى أنا استأجره يا مرغريت

— ألعلك جننت فان فى ذلك خطراً علىّ إذ لا يحق لى ان آخذ نفقاتى إلا من الدوق فدعنى افعل ولا تعترضنى فى شىء

فلم اعترضها وعدنا وقد اتفقنا إلى باريس

١٧

وفى اليوم التالى أمرتنى بالانصراف مبكراً لخوفها من حضور الدوق ووعدتنى ان تكتب لى ساعة انصرافه

لتخبرني عن موعد اللقاء كما كنا نفعل فى كل ليلة

وقبل الظهر تلقيت منها هذه الرسالة وهى

« انى ذاهبة الى بوجيفال مع الدوق لاستئجار المنزل فاذهب فى الساعة الثامنة الى بريدانس وانتظرنى هناك »

وفى الساعة الثامنة وافتنى حسب الاتفاق وقالت لى وهى داخلة لقد تم كل شيء كما اريد

فسألتها بريدانس قائلة

هل استأجرت المنزل

قالت نعم فقد وافقنى على استئجاره لأول وهلة

ولم أكن اعرف الدوق ولكنى خجلت من نفسى لانى أخونه على هذا الشكل اما مرغريت فانها مضت فى حديثها فقالت

وليس هذا ما صنعته فى بوجيفال

— ماذا صنعت ايضا

— لقد اهتممت بسكنى ارمان

فقالت لها بريدانس ضاحكة

أيقيم فى نفس المنزل

— كلا ولكنه يقيم فى المكان الذى تغديت فيه مرة مع الدوق فقد اغتنمت فرصة انشغال الدوق بتلك المناظر الطبيعية فسألت مدام ارنولد صاحبة المنزل اذا كان يوجد عندها منزل صغير فقالت ان لديها منزلا صغيرا مؤلفا من ثلاث غرف واجرته ستون فرنكا فى الشهر بأثاثه فاستأجرته منها ألم احسن صنعا

فقمت اليها وعانقتها فقالت

سيكون لك مفتاح للباب الصغير وسأعطى الدوق مفتاح باب الحديقة ولكنه لا يزورنى الا فى النهار

وقد رأيت منه انه سر بهذا المنزل سرورا عظيما لانه يبعدنى بذلك عن باريس ويكف عنه ألسنة أسرته

على انه سالنى كأنما خامرته ريبة فقال

كيف تطيقين الابتعاد عن باريس

قلت انى اهجرها راضية فانى أخاف أن تشتد بى علتى وأنا فى أشد حاجة الى الراحة والسكون

وقد تبين لى من عينيه انه لم يثق بقولى كل الثقة وهو شديد الحذر فلا بد لنا أن نتخذ كل اسباب الاحتياط فانه

سيراقبنى لامحالة فانى لا اكتفى منه بنفقاتى بل اطمع ان يفى دينى

— ومتى تذهبين اليه

— فى أقرب حين

— أتأخذين مركبتك وجيادك

— بل أأخذ كل منزلى فانى سأقيم هناك ستة اشهر

وبعد اسبوع تقلت منزلها الى بوجيفال وذهبت انا الى منزلى الجديد هناك

وقد صعب على مرغريت فى البدء تغيير عاداتها ولم تستطع ان تألف تلك العزلة فجأة فجعلت تدعو صديقاتها من حين الى حين وتولم لهن الولائم غير مكترثة للنفقات

وكان الدوق يحسب ان يزورها فى كل يوم ولكنه كان يكره وجود الناس حذرا من الانتقاد

فاتفق يوما انه جاءها على رجاء أن يتغدى معها دون ثالث بينهما فلما دخل الى المنزل سمع لغبا فى قاعة الطعام

ففتح الباب فوجد على المائدة نحو خمس عشرة امرأة من صديقات مرغريت أما أولئك الفتيات فانهن حين رأين ذلك الشيخ العجوز قد دخل اليهن قهقهن ضاحكات إذ لم

يكن يعرفنه فخرج الدوق مغضبا وأسرعت مرغريت اليه تعتذر عن قحة الفتيات

ولكن الدوق لم يرضه اعتذارها ولبث حاقدا عليها فقال لها وهي اول مرة خاطبها بهذه اللهجة

لقد آن لي أن أمل من نفقات امرأة لا تعرف على الأقل ان تحترم في منزلها من ينفق عليها

وذهب مغضبا فلم يعد منذ ذلك اليوم

وكان ندم مرغريت شديداً فانها لم تعد تستقبل احداً من صديقاتها وغيرت كل عاداتها وابلغت امرها الى الدوق فكانت كالنافخ في الرماد

وكنت قد ربحت بالقمار كما اخبرتك فجعلت انفق من ذلك الربح دون حساب ويأست مرغريت من الدوق فجاهرت بحبي ولم اعدافارق منزلها حتى بات الخدم يدعوني بسيدهم

وطالما بالغت بريدانس في نصحها ومثلت لها المستقبل بالوانه المظلمة فلم تكن ترعوى ولا تقبل نصحا

الى ان اتفق يوما اني سمعت بريدانس تقول لمرغريت

انما تريد ان تأتيها بأمر خطير

فصبرت الى ان خلت بي ووقفت عند الباب مصغياً وسمعت ما دار من الحديث بينهما فقد بدأت مرغريت سؤالها فقالت لها

ماذا حدث

قال رأيت ابوق

— ماذا قال

— قال انه يصفح لك عما لقيه من قحة الفتيات اللواتى كن عندك ولكنه علم انك تعشقين ارمان دوفال عشقاً عانياً وهو مالا يصفح لك عنه

ثم قال لى اتتخلى مرغريت عن هذا الفتى اصفح عنها وأعود الى اعطائها ما تريد كما كنت افعل من قبل واذا ابت فلا تطمع منى بدرهم مهما بلغت اليه من الاحتياج

— وبماذا أجبته

— انى سأبلغك كل قوله وانى سأسديك النصح فتمعنى يا ابنتى العزيزة فى موقفك وبما ستخسرينه فانها خسارة عظيمة لا يستطيع ان يعوضها ارمان

ان ارمان يحبك بملء جوارحه ولكنه لا يستطيع القيام بالنذر اليسير من نفقاتك

واعلمي انه لا بد ان يجيء يوم تفترقان ولكن ذلك يكون بعد فوات الأوان اذ لا تجدين الدوق فهل تريدين ان ابوح لي انا حادثة ارمان في هذا الشأن

ويظهر ان مرغريت كانت تتمعن فانها لم تجبها فجعل قلبي يخفق ويضطرب بعنف شديد الى ان سمعت صوتها تجيب فتقول

كلا اني لا اتخلى عن ارمان ولا اكتم غرامي به وقد يكون ذلك جنوناً مني ولكني احبه

ثم انه تعود الآن ان يحبني دون مزاحم فما يكون منه اذا باعدته ولو ساعة كل يوم

وفوق ذلك فاني اشعر بدنو الاجل فلا أحب ان احكم بأيامي القصيرة شيخاً كالدوق فليحتفظ بماله ولتبق لي حريتي

— ولكن كيف تصنعين

— لا أعلم

ولا شك ان بريدانس اجابتها جواباً لم أسمعه فانى فتحت الباب ودخلت فجأة فركعت امام مرغريت وبللت يدها بمدامعي التى كنت اذرفها لسروري وقلت لها

ان حياتى لك يا مرغريت وما انت فى حاجة الى الدوق فانى أنوب منابه ولا تجزعى لما يعتور حبنا من المصاعب فاننا نزيد حباً كل ما زادت المصاعب شدة ويفعل الله ما يشاء

فطوقت عنقى بذراعيها وقالت

أحبك يا ارمان حباً لم يكن يخطر لى ان ابلغ به الى هذا الحد فلنعش معاً ولاعتزل تلك الحياة السابقة التى بت أخجل منها بشرط انك لا تؤنبنى على الماضى أليس كذلك

فخنقت العبرات صوتى فلم أستطع ان اجيبها الا بأنى ضممتها الى صدرى

فالتفتت عند ذلك الى بريدانس وقالت لها

اذهبى الى الدوق وأخبريه بما سمعته وما رأيته الآن وقولى له انى لست فى حاجة إلى ماله

ومن ذلك الحين لم يعد يرد ذكر الدوق فى المنزل

واتقلبت مرغريت من حال الى حال فأصبحت اطهر الفتيات واقتصدت فى كل نفقاتها فلم تعد تنفق الا مالا بدمن انفاقه فكان الناس يعجبون حين يروننا نتنزه فى قارب كنت اشتريته ويقولون

عجباً كيف تغيرت تلك الفتاة وماهذه الملابس البسيطة التى استعاضت بها عن ذلك التأنق العظيم الذى كان تضرب به الامثال

على اننا كنا واأسفاه نسرع باغتنام فرص السعادة كأننا كنا عالمين بانها لا تدوم طويلا وانها سحابة صيف

وكنا منذ شهرين لم نذهب إلى باريس ولم يزرنا أحد فى خلالها ما خلا بريدانس وجوليا ديبارت تلك الفتاة التى قلت لك فى بدء حكايتى ان مرغريت أودعت عندها الاوراق

وكان الدوق قد كتب اليها ثلاث مرات فكانت تعرفها من عنواناتها فلا تفضها بل تدفعها الىّ دون أن تقرأها

وكانت رسائله محزنة شجية تدعو إلى الاشفاق حتى انى لم اكن أملك نفسى عن البكاء حين تلاوتها

وكان يحسب انه إذا منع عنها المال تشعر بالحاجة فتعود

اليه فلما أيقن ان ذلك لم يجده لم يعد يستطيع الصبر فعاد إلى استرضائها والتماس عودتها بالشروط التي تريدها

فكنت أقرأ هذه الرسائل والقيها من فوري في النار دون أن أخبرها بفحواها ودون أن انصحها بالعودة إلى الدوق بالرغم عما كان يهيج بصدري من عواطف الاشفاق عليه

وما ذلك إلا لأني كنت اخاف ان تتوهم بأني راغب بعودة الدوق لأخلص من نفقاتها .

وقد نتج من ذلك إن الدوق لم يعد يراسلها بعد يأسه من مجاوبتها وانا لبثنا على ما كنا فيه يشغلنا الحاضر عن كل مستقبل ولا نرى الحياة الا كما يتمثلها الحب والشباب

١٨

ولقد يصعب على القلم ان يصف ذلك العيش الذي كنا فيه فهو مؤلف من سلسلة حوادث لا تفيد روايتها القراء

فلقد كنا نخرج غالبا في الليل إلى تلك الغابة الصغيرة التي كانت تحيط بالمنزل فننسى مفاسد الوجود واهله ولا

نحلم الا بتلك الساعة القريبة التى نتعانق فيها فلا نفترق الى الغد

واحيانا كنا نبقى فى الغرفة كل النهار فلا نأذن لأشعة الشمس أن تنفذ اليها ولا يدخل الينا أحد غير الخادمة تأتينا بالطعام فنأكل دون أن نخرج ونحن فى مواضعنا ضاحكين لاعبين

ثم يفاجئنا النعاس بعد ذلك فننام ولا نلبث أن نستفيق حتى نعود إلى ما كنا فيه شأن السابح الغواص يغوص تحت المياه حتى تنقطع أنفاسه فيصعد فوقها متنفساً ثم يعود الى الغوص

على انى كنت اباغت مرغريت أحياناً فأجدها حزينة ولقيتها مرة تذرف الدموع فراعنى بكاءها وسألتها عن السبب فقالت

ليس حبنا حباً عادياً يا ارمان فانك تحبني كما يحبون عذراء نقية لم تعرف الغرام من قبل

ولا أخاف الا ان تفتح عيناك يوما فترى ماضى حياتى وتندم من تماديك فى غرامى وتلقى بى الى الهاوية التى أخرجتني منها وتضطرنى ان اعود الى العيش القديم فأموت من همى بعد ان ذقت حلاوة هذا العيش

أتقسم لى يا ارمان ان ذلك لا يكون

قلت أقسم لك بكل مقدس فى السماء فما هذه الظنون

فنظرت الىّ نظرات نافذة حاولت ان تخترق بها قلبي لتعلم اذا كنت صادقاً بيمينى ثم القت برأسها الى صدرى وقالت

لو كنت تعلم كم أحبك لما لمتنى على هذه الظنون

واتفق ليلة اننا كنا واقفين على مشرف نراقب القمر وهو يخرج متلصصاً من بين الغيوم ونصغى الى حفيف الاشجار التى كان يلاعبها النسيم وكنا واجمين لا نتحدث منذ حين فقالت لى فجأة

هو ذا الشتاء قد اقبل فهل نرحل ايها الحبيب

قلت إلى أين تؤثرين الرحيل

— إلى ايطاليا

— أملك ضجرت هنا

— انى أخاف الشتاء بل أخاف الرجوع إلى باريس على الأخص .

— لماذا

— لأسباب كثيرة فهل تريد ان نسافر . انى ابيع كل ما عندى ونذهب الى البلاد الايطالية نعيش فيها اهنأ عيش ولا يبقى لى شيء يذكرنى حياتى الماضية ولا يعلم هناك أحد من انا . قال اتريد

— لنسافر اذا كان فى ذلك رضاك يامرغريت ولكن لماذا تريدين بيع اشياء يسرك ان تجديها حين عودتك واية حاجة الى بيعها

ونعم انى لست من الاغنياء كما تعلمين ولكنى املك الآن ما يكفينا خمسة او ستة اشهر لنفقات هذه الرحلة اذا كنت تجدين فيها أقل سلوى

قالت كلا فاية فائدة من انفاق الاموال هناك فقد كلفتك كثيراً الى الآن

وكان ذلك يتكرر أحيانا فتقترح الاقتراح حتى إذا تمثلت لها نفقاته رجعت عنه

وقد اقترحت عليها مرة أن نعود الى باريس فأبت الرجوع اليها مؤثرة العيش فى الخلاء

وكانت بريدانس قد انقطعت تقريبا عن زيارتنا

تصدق ما أقول فعسى ان تكون صدقت الآن

والآن فان الدائنين علموا ان الدوق قد تخلى عنها وانها تعيش مع فتى لا ثروة له فهاج ثائرهم وهبوا هبة واحدة يطالبونها وفاء الدين وينذرونها بالحجز والبيع

وقد قامت الى خزانة فأخرجت منها اوراقا كثيرة فأطلعتني عليها ثم قالت اتحسب أيها الصديق انه يكفي العاشقين ان يختبئا في الخلاء كما تختبيء الحمامة في وكرها وان يقتصرا على الحياة الروحية دون ان يكترثا للحياة المادية

واذا كانت مرغريت لم تخنك عشرين مرة على الاقل فما ذلك الا لأنها نادرة بين اترابها

وقد طالما نصحتها إشفاقاً عليها اذ كرهت ان تبقى على هذه الحال وتضطر الى بيع نفائسها فكانت تجيبني انها تحبك وانها لا تخونك ولو قضى عليها بالجوع

ان كل ذلك شعري جميل ولكن الدائنين لا يرضون ان تسدد ديونهم العواطف الشعرية

— والآن

— والآن لا نجاة لها إلا بثلاثين الف فرنك أو باعوا

كل مقتنياتها

— ساعطيها هذا المبلغ

— ألعلك تريد ان تستدين

— دون شك

— وما يكون بينك وبين ابيك اذا فعلت ألا يمنع عنك المدد على الاقل

أم تحسب ان مثل هذا المبلغ يلتقط من الهواء ويسهل عليك ايجاده حين تريد

انى اعرف النساء فوق معرفتك بهن ياارمان فلا تقدم على عمل تكون فيه من النادمين وكن عاقلا فلا يخرجك اليوم من هذا الموقف الحرج غير التدرع بجلباب العقل

على انى لا أشير عليك بالتخلى عن مرغريت فذلك فوق مقدرتك بل أشير عليك أن ترجع الى العيش معها على ما كنتما عليه فى أول الصيف ودعها تجد منفرجا من هذه الأزمة

واعلم انك متى فككت قيودها يعود اليها الدوق تباعا وقد قال لى الكونت ج. أمس انها إذا عادت اليه

وفى عنها كل ديونها وأعطاها خمسة الاف فرنك فى كل شهر فتعيش آمنة مطمئنة ولا ينقص ذلك شيئاً من حبكما بل يزيده

أما إذا بقيتما على هذه الحال فلابد من أن تتخلى يوما عنها فلا ننتظر هذا اليوم لأنه يوم خرابك

وفوق ذلك فان الكونت من البلهاء كما تعلم فليس ما يمنعك أن تكون عشيق مرغريت

نعم انها ستبكى فى البدء قليلا ولكنها لا تلبث ان تألف تلك الحال الجديدة وتشكرك يوما لانك مهدت لها سبيل الهناء

وفوق كل ذلك فافترض ان مرغريت مزوجة أتطلقها من زوجها أم تقتصر معها على خيانة ذلك الزوج

هذا ما أقوله لك وقد قلته لك مرارا على سبيل النصيحة أما الان فلا يدفعنى إلى قوله غير الاضطرار

وآخر ما أقوله فى هذا الباب إن النساء امثال مرغريت يتوهمن انهن يكن محبوبات وان شعاع الحب لا ينفذ الى قلوبهن ولذلك لا يعرفن معنى الاقتصاد

على انهن لو علمن هذه الحقيقة لاقتصدن فى نفقاتهن حتى إذا سقطت احداهن فى مهاوى الغرام كان لديها من مالها ما تستعين به على الثبات فى موقف ذلك الغرام

وعندى انه لا يجب أن تقول شيئاً من هذا لمرغريت بل كل ما يجب ان نفعله هو ان نعود بها الى باريس وان نغمض عينيك وهذا كل ما نطلبه اليك

وبعد اسبوعين يصبح الكونت فى قبضة يدها فتقتصد كل الشتاء وفى الصيف القادم تعودان الى ما انتما فيه الآن

هذا ما قالته لى بريدانس وهى تحسب انها جاءت الى بالآيات البينات فرفضت اقتراحها كل الرفض وأى رجل أنوف يرضى ان يحبب على نفقات سواه وقد بت واثقاً ان مرغريت تؤثر الموت على هذا التفريق

وقد نظرت الى بريدانس نظرة المؤنب وقلت لها كفاك مزاحاً فما الذى تحتاج اليه الآن مرغريت

قالت ثلاثون الف فرنك كما قلت لك

— متى تحتاج الى هذا المبلغ

— قبل شهرين

— سيكون لها وسأعطيك هذا المبلغ على ان تقسمى لى ان لا تقولى لها انه منى

— سأفعل

— وإذا ارسلت أيضا بمهمة بيع او رهن تخبريننى

— لم يبق سبيل الى الخوف من ذلك اذ لم يبق لها ما يرهن او يباع

فتركتها وانصرفت الى منزلى لافتقد رسائلى فوجدت فيه اربع رسائل من ابى

١٩

وقد قرأت رسائل ابى فوجدت فى ثلاث منها يظهر انشغال باله لانقطاعى عن مراسلته

وأما فى الرابعة فقد كتب لى انه وقف على تغيرى وانه يتأهب للحضور

وكنت ولا أزال أحترم ابى اشد الاحترام فكتبت

اليه انه لم يؤخرنى عن مراسلته غير رحلة قصيرة عدت منها ورجوته ان ينبئنى بيوم قدومه كى اذهب لاستقباله

وأخبرت خادمى أين أنا وأمرته ان يسرع الى بأول رسالة ترد إلى من ابى وعدت الى بوجيفال

وقد وجدت مرغريت تنتظرنى عند باب الحديقة وعيناها تدلان على القلق

فعانقتنى حين رأتنى وسألتنى قائلة

هل رأيت بريدانس

قلت كلا

— ولكنك أطلت الغياب فى باريس

— وجدت رسائل كثيرة من ابى اضطررت الى المجاوبة عليها

وبعد هنيهة دخلت خادمتها فذهبت مرغريت اليها فتكلمتا بصوت منخفض وعادت إلى فأخذت بيدى وقالت

لماذا خدعتنى يا ارمان فقد ذهبت الى بريدانس

— من أنبأك

— خادمتى

— كيف عرفت ذلك

— انها اقتفت أثرك

— أأنت أمرتها ان تتبعنى

— نعم فقد خطر لى انك لا تتركنى وتذهب الى باريس الا لسبب خطير فانك لم تفارقنى منذ اربعة اشهر فخشيت ان يكون حدث مصاب او تكون على موعد مع سواى

— أتظنين بى هذه الظنون

— لقد استرحت الآن اذ علمت الى اين ذهبت ولكنى لم اعلم ماذا قيل لك

فأطلعتها على رسالة أبى فقالت

ليس هذا الذى اسألك عنه بل اريد ان اعلم لماذا ذهبت الى بريدانس

— لأراها

— انك تكذب يا ارمان

— اذن فاعلمى انى ذهبت لاسألها اذا كان الجواد شفى واذا كانت لا تزال فى حاجة الى كشميرك وجواهرك

فاحمر وجهها دون ان تجيب ومضيت فى حديثى فقلت نعم لقد عرفت مااصاب مركبتك وكشميرك وحليك

— الملك حاقد على

— دون شك إذ كان يجب ان تسأليني قضاء ماانت فى حاجةاليه

— ان حبا يتمكن كحبنا با ارمان يستحيل فيه على المرأة إذا كان لديها شيء من الأنفة تؤثر ان تضحى كل نفيس عندها على أن تسأل عشيقها ان يمدها بالمال

ولا ريب عندى انك تحبنى أصدق حب ولكن الخيط الذى يربط حب امثالى بالقلب يكون أوهى من خيط العنكبوت إذ قد يخطر لك فى ساعة ضيق أو ساعة ضجر انى أحببتك لغرض من الاغراض

ولا شك ان بروډانس ثرثارة فأية حاجة لى الآن بالخيول والمركبات فقد اقتصدت كثيراً ببيعها إذ لم أعد محتاجة إلى الانفاق عليها

وانى استطيع الاستغناء عنها بشرط ان تحبنى وهذا كل ما اطلبه اليك الا تستطيع ان تحبنى من غير جواهر

وكشمير ومركبات

— ولكنك كنت تعلمين أيتها الحبيبة انه لا بد لى أن أقف يوما على هذه الحقائق المحزنة وانى حين أقف عليها لا أطيق احتمالها

— لماذا

— لأنى لا أطيق أن احتمل ما تفعلين وان تحرمى بسبب عطفك علىّ من نفائسك

وأنا أيضاً لا أطيق أن تتصورى فى ساعة ضيق أو ساعة ضجر أنك لو كنت مع سواى لما احتجت الى بيع ركبابك فثق أيتها الحبيبة ان كل ما بعته سيرجع اليك فى أقرب حين

— وذلك يدل انك لا تحبنى

— أيخطر لك هذا الخاطر

— دون شك فانك لو كنت تحبنى لتركتنى أحبك كما أريد

ولكنك أبيت الا أن ترى بأنه لا بد لى من هذه الزينة وانه لا بد لك من الانفاق علىّ

بل انك تخجل أن تقنع ببراهين حبى ويخطر لك بالرغم

عنك انك ستتخلى يوما عني فتتطالف وتحاول الاتفاق كي لا نكون مدينا لي في المستقبل الذي بت أخافه

ولقد أصبت أيها الصديق ولكني أنزلت آمالي في غير موضعها وما هذا الذي كنت أرجوه

وقد حاول أن ينهض فمنعتها وقالت لها

بل اني لا أريد الا أن تكوني سعيدة وان لا تؤنبني على شيء

— وتفترق بعد ذلك

— لماذا نفترق يا مرغريت ومن أوحى اليك هـذا النبأ المحزن

— أنت الذي أوحيته إليّ فانك لا تأذن لي أن أراعي حالتك ويأبى غرورك الا أن تبقيني على ما كنت فيه

ولو كنت صادقا في حبك لما باليت مثلي بهذه السفاسف ولما أسفت لبيع مركباتي وجواهري كأنك قد قستها الى حبك

إن مثل هـذه البهرجات يسر بها من لا يحب وأما الحب فانه يجعل الماسة زجاجة والمركبة خشبة

ثم انك تريد أن تفي عني ديوني وان تنتزع هذا المبلغ

من ثروتك وان تنفق على من مالك بحيث لا يمضى بك ثلاثة اشهر حتى ينضب معينه فنعود بقيدك الحب بأمتن وثاق انى ارضى بكل ما اقترحه عليك

وإذا كنت ترضى فى ذلك العهد بما اقترحه بعد فقرك فلماذا لا ترضى به الآن وتبقى لك تلك الثروة

ان ريعك السنوى الآن يبلغ ثمانيـة الاف فرنك وإذا بعت كل ما عندى تضاعف ذلك الايراد فنعيش عيشاً هنيئاً فأكون أنا حرة وتكون أنت على أتم الاستقلال

ارمان لا ترفض اقتراحى ولا تضطرنى أن ألقى بنفسى إلى تلك الهاوية وأعود إلى العيش القديم

فاغرورقت الدموع فى عينى ولم استطع الجواب ومضت فى حديثها فقالت

انى أريد أن أعد كل أمرى دون أن أقول لك شيئاً فسأفى ديونى واستأجر منزلا صالحا لاقامتنا

وفى شهر مارس نعود إلى باريس فقل أتحبنى .. أتزعن لى يا ارمان

— انى افعل كل ما تريدين

وقد اتفقنا على ذلك فكانت من أسعد الناس بهذا الاتفاق

أما أنا فقد خطر لى ان اهدى مرغريت إيرادى الذى ارثته من امى وهو ثلاثة الاف فرنك فى العام بحيث يبقى لى الخمسة الاف التى عينها لى أبى وهى تكفينى

ولم أقل لمرغريت شيئاً من ذلك ليقينى انها تأبى هذه الهبة كل الأباء

وكان هذا الايراد الذى تركته لى أمى ناتجا من رهن منزل لم أعرفه وكل ما كنت أعرفه فى هذا الشأن ان المسجل كان ينقدنى كل ثلاثة اشهر سبعمائة وخمسين فرنكا مقابل إيصال بسيط

فلما حان زمان انتقالنا من بوجيفال ذهبنا إلى باريس لنبحث عن منزل نستأجره

وقد اغتنمت هذه الفرصة فذهبت الى المسجل فسألته عن طريقة تحويل إيرادى إلى شخص آخر

فأرشدنى إلى الطريقة فسألته كتمان هذا الأمر عن أبى وعدت إلى مرغريت فوجدنا منزلا موافقاً وتخليت عن منزلى

أما مرغريت فانها وجدت من يفي عنها ديونها ويعطيها اربعين الف فرنك مقابل استيلائه على موجوداتها وعدنا إلى بوجيفال

وبعد أسبوع بينما كنت على المائدة مع مرغريت إذ دخلت الخادمة تنبئني بقدوم خادمي

فدعوته إلى وسألته عن سبب قدومه فقال لي

إن أباك قد حضر يا سيدي إلى باريس وهو يرجوك أن توافيه حالا إلى منزلك فانه ينتظرك فيه

فاضطربت واضطربت مرغريت لهذا النبأ كأننا توقعنا مصابا من قدومه وعرفت ذلك من عينيها فقلت لها

لا تجزعي يا مرغريت فليس ما يحمل على الخوف

قالت ولكنك ستسرع بالعودة فاني أنتظرك في النافذة

قلت هو ذاك

ثم أمرت خادمي ان يتقدمني الى أبي وبعد ساعتين كنت في منزلي

٥

كان أبي جالسا وراء منضدة يكتب وهو بملابس الاستراحة

فلما دخلت النفت ونظر إليّ فعرفته من نظراته انه ما جاء إلا لأمر خطير

على انى تكلفت السكينة وأسرعت الى عناقه بملء اللهف فسألته متى أتيت ياأبي

قال أمس مساء

— أبت هنا حسب العادة

— نعم

— يسوؤنى انى لم اكن هنا فاستقبلك

فلم يجبنى على هذا القول بل قال لى

لدينا أمور خطيرة يجب ان نتباحث فيها يا ارمان

— انى مصغ اليك ياابى

— أتعدنى ان تجيبنى بملء الجلاء عما اسألك

— هذه هي عادتي كما ترى

— اذن قد يكون أحق ما علمته من انك تعيش مع فتاة تدعى مرغريت غوتيه

— نعم

— أتعلم من هي هذه الفتاة

— نعم هي من بنات الهوى

— أهي التي منعتك عن ان تأتي الينا فتراني وترى أختك في هذا العام

— نعم يا ابي واني اعترف كما ترى

— اذن انت تحب هذه المرأة

— لو لم اكن أحبها لما شغلني حبها عن أقدس واجب لديّ وهو زيارتكم. ذلك الواجب الذي اسألك اليوم المغفرة عن إخلالي به

ويظهر ان ابي لم يكن يتوقع ان اجيبه بمثل هذه الاجوبة. فانه أطرق هنيهة مفكراً ثم التفت اليّ وقال

ولكن لا بد لك ان تكون علمت انك لا تستطيع ان تعيش هذا العيش واني لا أطيق ان تكون على هذا الحال

— بل قات فى نفسى يا ابى انى ما زلت لا أمس شرف اسرتى فلا بأس على من ان انهج هذا النهج وهذا الذى اطمأنت له نفسى من خرفها

وكنت قد عولت على ان اناضل أبى أشد النضال فى هذا المعترك وان لااتهيب احداً فى سبيل استبقاء مرغريت

أما أبى فانه نظر الى نظرة منكرة وقال

اذن فاعلم انه قد آن لك ان ترجع عن هذه الخطة العوجاء

— لماذا يا أبى

— لأنك تمس شرف عائلتك وانت تحترمها كما تقول

— كيف ذلك يا أبى

— ذلك واضح لا يحتاج إلى ايضاح فاننا قد نتغاضى عن أن يكون لك خليلة وعن ان تنفق عليها فذلك لا بد منه لكل رجل شريف

ولكن الذى لااستطيع الاغضاء عنه هو ان ينسيك حبها أقدس الاشياء لديك وان تمادى وتنهتك فى ذلك الحب حتى تطير اخباره الشائنة وتبلغ الى بلدى فتصم اسمى

الذى اعطيتك اياه تقياً خالياً من كل عيب ووصمة وهـذا الذى لا يجب ان يكون

— اسمح لى يا أبى أن أقول لك ان الذى انبأك بأمرى إنما كان واهماً فما أدى لك الحقيقة

ونعم انى عشيق مرغريت غوتيه وانى قيم واياها فى منزل واحد ولكنى لم ألقبها باسمى الذى أخذته منك ولا انفق عليها الا بقدر ما تسمح به حالتى ولم أستدن شيئاً ولم أكن فى شيء من تلك الحـالات التى تدعو الوالد الى أن يعنف ولده بما تعنفنى به الآن

— انه يحق للاب فى كل حين ان يبعد ولده عن طريق الضلال حين يراه سالكا فيه

وانك اذا كنت لم تسىء بعد فلا بد لك من الاساءة

— أبى

— لا تقطع على الحديث فانى أعرف من الحياة مالا تعرفه فان العواطف الشريفة لا تكون الا عند المرأة الشريفة والذى أريده هو ان تتخلى عن خليلتك

— يسؤنى يا ابى ان اضطر الى عصيانك فان التخلى

عنها محال

— انى اكرهك على ذلك

— لقد مضى يا ابى زمن جزائر سانت مرغريت التى كانوا ينفون اليهــا الخطايا حتى ولو بقى هذا النظام ونفوا خليلتى اليها لتبعتها

وانى قد اكون مخطئاً يا ابى ولكنى أحبها بملء جوارحى فلا اكون سعيداً بل انى لا اعيش إلا بقربها

— كفى يا بنى فافتح عينيك تبصر النور واصغ إلى إرشاد أبيك الذى طالما أحبك ولم يرد لك غير الخير والهناء وبعد أيروق لك أن تكون أسير فتاة كانت محظيــة كثيرين من قبلك

— لا أبالى بماضيها بعد ثقتى من مستقبلها وبعد فانها تحبنى وقد طهر هذا الحب الصادق قلبهــا أفلا اكون قــد احسنت بمنعها عن الغى والله يرضى عن التائبين

— أتحسب يا بنى ان من واجبات الرجل الشريف ان يرشد الغوانى ويحملهن على التوبة

بل ما عساك تقول حين تبلغ الاربعين وتجد انك قد

اضعت شبابك ومستقبلات على هذه السفاسف

انك لو فكرت فى اقوالك هذه وقد بلغت ذلك السن لهزأت بها وضحكت من نفسك هذا اذا اقتصر امرك على ما انت فيه ولم تزل زلة تسمّ حياتك إذ تصم ماضيك

وكيف كنت الآن لو كان ابوك قد نهج منهجك وقضى ايامه على مغازلة الحسان اكان اتيح لى ان اجعلك شيئاً مذكوراً فى هذا الوجود

تمعن يا بنى واعتزل هذه المرأة فذلك خير لك واذعن لنصيحة أبيك فانه يتوسل اليك

فلم اجبه بكلمة اذ لم اجد ما اجيبه ومضى فى حديثه فقال

انى استحلفك يا ارمان باسم امك ان تعتزل هذه الحياة الشائنة وتترك هذا العيش الذميم فانك قد بلغت الرابعة والعشرين من عمرك فانظر الى مستقبلك

انك لاتستطيع ان تحب هذه المرأة طويلا وهى ايضاً لا تستطيع ان تحبك الى الأبد . وانك اذا خطوت خطوة ايضاً لا تعود قادراً على الرجوع فى الطريق التى سلكتها

وتقضى حياتك نادماً على ما بدر منك فى عهد شبابك

سافر يا بني شهراً او شهرين الى اختك فان الراحة والحب العائلى الصحيح يشفيانك مما انت فيه

اما خليلتك فانها تتعزى فى ذلك الحين ولا تلبث ان تتخذ عشيقاً بدلا منك فتعلم حينئذ ان اباك كان صادقاً فى نصحه وانك ما كنت الا فى غرور

هلم يا بنى فقد أحسنت كل الاحسان بقدومى اليك ..

هلم فانك مسافر معى أليس كذلك يا ارمان

وكنت اشعر ان ابى مصيب فى قوله اذا اتخذ قوله على اطلاق بشأن بنات الهوى

واما اذا اختص بمرغريت فهو مخطىء اشد الخطاء

ولكنه قال لى كلماته الاخيرة بارق لهجة تشف عن الحنو فلم اجسر على ان اجيبه بما يكرهه ووجمت فقال لى

ما بالك لا تجيب

قلت يعز علىّ يا ابى انى لا استطيع ان أعدلك فى شىء فلا قبل لى باجابتك الى ما اردته فهو فوق مقدرتى

واعلم يقيناً انك تبالغ فى نتيجة هذا الحب فان مرغريت

ليست كما تظن بل ان هذا الحب الذى تخاف ان يزجنى فى طريق السوء والضلال قد يفعل عكس ما تتوهم ويدفعنى الى اشرف المناهج واقوم سبيل

ولو عرفت مرغريت حق العرفان لما خفت على هذا الخوف فان لها من نبل النفس ما تفوق به كثيراً من النبيلات

— وهذا النبل هو الذى دعاها ان تقبل منك كل ثروتك لان حصتك من ارث امك التى وهبتها اياها هى كل ما تملك افهمت ما اقول انها كل ثروتك

وقد قال لى هذا القول من باب الانذار كأنه يتوعدنى ان يحرمنى من الراتب الذى عينه لى وهو خمسة آلاف فرنك فى العام

فقلت له من انبأك انى تخليت لها عن ثروتى

قال المسجل وهو رجل شريف أحسب انه يقدم على مثل ما فعل دون ان يخبرنى . ومن اجل هذا اتيت إلى باريس كى امنعك من السقوط فى الهاوية فان امك تركت لك بعد وفاتها ما تعيش به عيشاً شريفاً لا لتنفق اموالها على حظاياك

— اقسم لك يا ابى ان مرغريت لا تعلم شيئا من امر هذه الهبة

— إذن لماذا وهبتها

— لان هذه المرأة التى تتهمها تبادى بريئة منه قد ضحت كل ما تملك كى تعيش معى

— وأنت كيف تقبل هذه التضحية اى رجل فى قلبه ذرة من الشرف يرضى ان تضحى مومس دزهما فى سبيله

— كفى إنك ستعتزل هذه المرأة الآن وقد كنت من قبل أرجوك اما الآن فانى آمرك

وإنى لا أريد أن يصم هذا العار عائلتنا فاعد معدات السفر وتأهب للرحيل معى

— ولكنى لا أسافر يا أبى

— لماذا

— لانى بلغت امس السن الذى يحق لى فيه أن لا اذعن لاوامر أحد

فاصفر وجه أبى لجوابى وقال

حسناً فاني اعلم ما يتحتم عليّ ان افعله

وعند ذلك قرع الجرس وجاء خادمي فقال له

خذ حقائب سفري الى فندق باريس

وعلم انه غرفته فأتم لبس ثيابه

حتى اذا خرج من الغرفة دنوت منه فقلت له

أتعدني يا ابي ان لا تقدم على أمر يتعب مرغريت

فوقف ونظر إليّ نظرة احتقار ثم قال لي

أظن انك مجنون

ثم خرج واقفل الباب بعنف فخرجت في اثره فركبت مركبة وذهبت من فوري الى بوجيفال فرأيت مرغريت تنتظرني في النافذة

٢١

فلما رأتني وثبت الى عنقي فعانقتني كأنها لم ترني من دهر طويل ثم تراجعت مذعورة فقالت

ما هذا الاصفرار الذي أصابك

فأخبرتها بكل ماجرى بينى وبين أبى فتأوهت وقالت

رباه لقد كان ما خفت ان يكون فقد ارتجفت خوفاً حين جاء خادمك فاخبرك بقدوم ابيك كأنما قلبى انبأنى بهذا المصاب

مسكين يا ارمان بل مسكينة انا فأنا انى سببت لك هذه الاحزان

والذى اراه انه خير لك ان تتخلى عنى وان لا تختصم مع ابيك

ومع ذلك فانى ما اسأت اليه بشئ وكنا عائشين بملء السكينة وهو يعلم ان من يكون له عمرك ويعيش فى باريس لا بد ان يكون له خليلة فكان يجب عليه ان يعد نفسه سعيداً اذ كنت انا تلك الخليلة دون سواى لأنى أحبك ولا اطمع منك بشئ لا تسمح به حالتك

— ألم تقل له كيف وضعنا خطتنا المستقبلة

— نعم وهذا الذى زاد فى هياجه لأنه وجد به دليلا على حبنا المتبادل

— إذن ماذا نصنع

— نبقى على ما نحن فيه وندع العاصفة تزول

— اتزول في اعتقادك

— هذا لا بد منه

— ولكن ايقف ابوك عند هذا الحد

— ماذا تظنين انه يصنع

— لا اعلم ولكنه سيصنع كل ما يستطيع ان يصنعه لحمل ولده على طاعته

وانه قد يبسط لك حياتي الماضية وربما اضاف اليها شيئاً من اختراعاته كي يحملك على التخلي عني

— انك تعلمين يقيناً بأني احبك

— هو ذاك ولكني اعلم ايضاً انه لا بد ان يأتي يوم تذعن فيه لأبيك وانه قد يتمكن من إقناعك

— كلا يا مرغريت بل انا الذي سأتمكن من اقناعه فانه لم يهيج هذا الهياج الا اثر وشاية بعض اصحابه

ولكنه كريم عادل وسيرجع عن اعتقاده القديم وهبي انه لبث مصراً على ما هو عليه فاني لا أبالي

— لا تقل هذا القول يا ارمان فاني اوثر كل عناء على

ان اكون السبب في غضب ابيك عليك

وعندي انه يجب ان تدع هذا النهار يمضي وغداً تعود اليه فيكون قد تمعن في امره كما تكون انت قد تمعنت في امرك فتتفقان ولا يجب ان تعترضه في مباحثه وتظاهر بالرضوخ له فيدعنا وشأننا على انه مهما اتفق فثق اني سأحافظ على عهدك ما بقي لي ذرة من الحياة

— اتقسمين لي

— أأنا في حاجة الى القسم

وفي اليوم التالي ذهبت الى باريس وسرت الى الفندق فلم أجد ابي فذهبت الى منزلي على رجاء ان اجده فيه فقيل لي انه لم يجيء فبحثت عنه عند المسجل ثم عدت الى الفندق فانتظرت فيه الى الساعة السادسة دون ان يعود فرجعت الى بوجيفال

وقد وجدتها تنتظرني فبادرتني بسؤالها قائلة

— ماذا جرى مع ابيك

قلت اني لم أجده في كل مكان بحثت عنه فيه ولا أدري اين هو

قالت إذن سنعود الى البحث عنه غداً

قلت بل ارى ان اصبر الى ان يدعونى اليه

— كلا يا ارمان بل يجب ان تذهب اليه غداً على الأخص

— لماذا تقولين غداً على الاخص

فاحمر وجهها قليلا لهذا السؤال واجابتنى قائلة

لان ذهابك اليه أدل على الطاعة واقرب الى رضاه

وكانت كل تلك الليلة مشغلة البال حزينة القلب فكنت اعيد عليها كل تلك الاقوال التى تدعو الى سكينتها واطمئنانها

وعند الصباح ألحت عليّ بالذهاب الى ابى إلحاحاً أنكرته منها إذ لم افهم كل مقاصدها فيه

فذهبت الى الفندق ممتثلا فما وجدته فيه ولكنى وجدت رسالة منه إليّ ففتحتها وقرأت ما يأتى

« اذا عدت اليوم لتراني فانتظرني الى الساعة الرابعة فاذا لم ارجع فى تلك الساعة عد غداً للعشاء معى فان لى ما اقوله لك »

وقد صبرت الى ان فات الموعد المعين فعدت الى

بوجيفال

وكنت قد لقيتها امس حزينة عند رجوعى اما النوم فانها اكبت على معانقتى وبكت بكاء طويلا لا اعلم له سبباً

حتى اذا سكن جأشها اخبرتها بما جرى واطلعتها على رسالة ابى وقلت لها انى استنتج من هذه الرسالة خيراً

فعادت الى البكاء حين قلت لها هذا القول وبلغ منها الاضطراب انها اصيبت بنوبة عصبيـة فناديت الخادمة وتعاونا على حملها الى سريرها دون ان تقول كلمة

ولكنها بعد ان ذهبت النوبة عادت الى البكاء وكانت تأخذ يدى من حين الى حين فتقبلها وتغسلها بالدموع

وقد سألت الخادمة اذا كان قد وردها كتاب او جاءها احد حين غيابى فكان السبب فى ما أصابهـا من الاضطراب

فأجابتنى انه لم يجىء أحـد ولم يردها رسالة من أحد غير انى كنت واثقا انه حدث امر فى غيابى اتفقت مع خادمتها على إخفائه عنى

وفى الليل خف مابها فاجلستنى بجانبها وأخذت تجدد

فى ثورة هواها وتبتسم فى ابتسامات كنت ارى انها تتكلفها فان الدموع كانت تتساقط من عينيها بالرغم منها

وقد بذلت كل مجهودى فى سبيل حملها على الاعتراف بعلة بكائها دون جدوى

الى ان غلبها النعاس فنامت نوما مضطربا اذ كان يفاجئها الكابوس فتصيح صيحة وتستفيق وبعد ان تستوثق انى لا ازال بقربها تعود آمنة الى الرقاد

وطال بها هذا الحال الى الصباح دون ان افقه له معنى إلى أن نامت نوما طبيعيا هادئا فانها لم تنم منذ يومين

وقد صحت قبل الظهر بساعة فنظرت الى ما حواليها وقالت لى هل عدت من باريس

قلت كلا لم اذهب بعد فقد انتظرت الى ان تستفيقى

— فى اية ساعة تذهب

— فى الساعة الرابعة

— اذن ستبقى معى الى تلك الساعة

— دون شك

— اذن لتتغدى

— اذا كنت تريدين

— وفى الساعة الرابعة تذهب الى باريس

— واعود مبكراً جهد ما استطيع

فنظرت إلى نظرة تائهة وقالت

أتعود

— دون شك

— هذا أكيد فانك ستعود هذه الليلة كعادتك وانا انتظرك كعادتى فتحبنى واحبك ونكون سعيدين كما نحن

وكانت تقول كل هذه الأقوال بلهجة ما ألفتها منها وبنبرات تشف عن حزن عميق لا يدرك له غور

فوجف قلبي خوفا عليها وقلت لها

أرى انك مريضة أيتها الحبيبة فلا استطيع ان ادعك على هذه الحالة وساكتب الى ابى كى لا ينتظرنى

فاهتزت لهذا القول وقالت

احذر ان تفعل فان أباك يتهمنى لا محالة انى كنت السبب فى منعك عن الذهاب اليه وانى حلت بينك وبينه حين أراد ان يراك

كلا . . كلا ايها الحبيب لا تفعل إذ لا بد من ذهابك

وبعد فما انا بمريضة كما تنوهم وكل امرى انى حلمت حلما مزعجاً اضطربت له واستفقت وانا على ما ترانى

وعند ذلك انقطع بكاؤها كأنها خشيت ان تنبهنى الى ما كانت تريد كتمانه عنى

فلما دنا الوقت المعين لذهابى عانقتها واقترحت عليها ان تصحبنى الى المحطة على رجاء ان تفيدها هذه النزهة

فرضيت باقتراحى وصحبت معها خادمتها كى لا تعود وحدها

ولما ركبت القطار قلت لها

الى هذا المساء

فلم تجبنى

وكان قد اتفق انها لم تجبنى مرة على مثل هذا التوديع ونتج عن ذلك ان الكونت ج. صرف ليلته عندها .

ولكن هذا العهد كان بعيداً فلم تخطر تلك الحادثة فى بالى ولو خطرت لى لما باليت بها اذ لم يكن يخامرنى ظن على الاطلاق بان مرغريت يمكن ان تخوننى

ولما وصلت إلى باريس أسرعت بالذهاب الى بريدانس فرجوتها ان تذهب الى مرغريت على رجاء ان تسليها بأحاديثها ونكاتها

فقالت لي بلهجة دلت على القلق

أهي معك الآن

— كلا

— كيف حالها

— انها مريضة.

— أليس في نيتها الحضور

— هل كانت عازمة على ان تحضر .

فأطرقت بعينيها ورأيت من هيأتها انها كانت تخشى ان تطول إقامتي عندها فقلت لها

إني اتيت اليك ايتها العزيزة ارجوك ان تذهبي اليها اذا لم يكن لديك ما يشغلك فتقيمين معها وتبيتين عندها فاني لم أرها مرة على ما رأيتها اليوم

قالت اني مضطرة الى العشاء هنا فلا استطيع الذهاب اليها في هذه الليلة ولكني سأذهب غداً

فخرجت من عندها وانا موقن انها تحكم عنى شراً مثل مرغريت وذهبت الى ابى فمد إلى يده مصافحا وقال لى

لقد سررت بقدومك إلى امس واليوم اذ استدللت منهما على انك تمعنت فى الأمر نفس تمعنى فيه

قلت اتأذن لى يا ابى ان اسألك عن نتيجة تمعنك

قال لقد رأيت بعد التفكير انى قد بالغت فى الاهتمام بالتقارير التى وردت لى عنك وعاهدت نفسى على انا كون أقل قسوة مما كنت

فاستفزنى الفرح مما سمعته وقلت

أحق يا ابى ما تقول

قال نعم فلقد وقفت على شىء من اخبار هـذه الفتاة فرأيت انه إذا لم يكن لك بد من اتخاذ خليلة فان مرغريت غوتييه اقل ضرراً من سواها

قلت كيف اشكرك يا ابى بعد ان جعلتنى اسعد انسان

وقد تحدثنا هنيهة فى امور شتى ثم قمنا إلى المائدة فما لقيت من ابى غير الانس والارتياح

وكنت شديد القلق على مرغريت فكنت لا افتأ انظر الى ساعتى فتنبه أبى لجزعى وقال لى

انك تكاد تجن لهفا للرجوع الى من تحب وهذا شأن الشباب فانهم يضحون اخلص العواطف واصدقها فى سبيل عواطف يشينها الريب

قلت لا تقول هذا القول يا ابى فان مرغريت تحبنى أصدق حب . وقد ألح على كثيراً ان ابقى معه كل السهرة ولكني تلطفت بالاستئذان على ان اعود اليه غدا

وكان الطقس جميلا فصحبنى الى المحطة وهناك قال لى

أتحبها كثيراً يا ارمان

قلت حب هيام

قال اذهب اذن

وقد وضع يده على جبينه كأنه يريد أن يطرد فكراً خطر له ثم فتح فمه كانه يريد ان يقول لى شيئاً

ولكنه ما لبث ان ملك نفسه فاكتفى بمصافحتى وهو يقول

الى الغد

٢٣

وقـد وصلت الى بوجيفال وانا احسب ان القطـار لا يسير لفرط جزعى

وهناك لم اجد أثراً للنور فى المنزل فطرقت الباب فلم يفتح لى احد وكانت هذه المرة الاولى التى اتفق لى مثل هذا

ثم اقبل البستانى ففتح لى الباب واستقبلتنى الخادمة بمصباح فدخلت تواً الى غرفة مرغريت فلم أجدها فسألت الخادمة قائلا

اين هى

قالت انها ذهبت الى باريس

— اتقولين الى باريس

— نعم يا سيدى

— متى ذهبت

— بعد ذهابك بساعة

— الم تدع لى شيئاً

— كلا

وكانت الخادمة قد انصرفت فقلت فى نفسى

ان الغيرة قد تكون فاجأتها فذهبت الى باريس كى تستوثق ان زيارتى كانت لأبى

وقد تكون بريدانس كتبت اليها ان توافيها لمهمة خطيرة

ولكنى رأيت بريدانس فلم تقل لى شيئا يستدل منه انها كتبت الى مرغريت

ثم ذكرت فجأة جملة سمعتها من بريدانس حين سألتنى وانا عندها فقالت لى

« أليس فى نيتها ان تحضر اليوم »

وقد ذكرت ايضاً انى حينما قلت لها انها مريضة كيف انها اضطربت مما استدللت منه انهما كانتا على موعد

فلما ذكرت ذلك ذكرت دموع مرغريت وكل حوادث النهار نخامرنى الشك بكل ما سمعته حتى بأقوال ابى

ثم ذكرت انها ألحت على بالذهاب الى ابى فلما اقترحت عليها ان ابقى معها وان اؤجل زيارة ابى تظاهرت بالشفاء

مما ألم بها

فما هذا الذي جرى ألعلها تخدعني وقد ذهبت على رجاء أن تعود قبلي فلا اعلم بخروجها من المنزل ثم قضت عليها الأمور ان تبقى حيث هي الآن

ولماذا لم تقل شيئا لخادمتها بل لماذا لم تكتب لي اطمأن بها لغيابها وما معنى هذه الاسرار

هذا الذي كنت اناجي به نفسي والرعب ملء قلبي في تلك الغرفة الخالية وعيناى شاخصتان الى الساعة حيث رأيت ان الليل قد انتصف مما قطع رجائي من عودتها في تلك الليلة

على انه بعدما كان بيننا من الاتفاق و بعد تلك التضحية التي عرضتها علي وقبلتها أيعقل ان تكون أرادت خديعتي

كلا فان ذلك لا يكون واني اوثر ان يموت ضميري على ان ادنسه بهذه الظنون

وغاية ما في الأمر ان تكون المنكودة قد تكون وجدت من يشتري منزلها فذهبت الى باريس لعقد الاتفاق

وقد أبت ان تخبرنى لانها تعلم ان هذا البيع يؤلمنى بالرغم عن موافقتى عليه فأبت اخبارى كى لا تمس كبريائى وهى لا تعود الا بعد انهاء هذه المهمة

ولا شك ان بريدانس كانت تعينها على قضائها وقد حالت الحوائل دون اتمامها فى هذه الليلة فباتت عند بريدانس على ان تقضيها فى الغد وانها ستأتى قريباً حذراً على من القلق

اما هذه الدموع التى كانت تذرفها فما ذلك إلا لتأثرها من بيع منزلها وتخليها عن تلك النفائس التى كان يحسدها عليها اترابها

وكنت اعزى نفسى بهذه الظنون ومع ذلك فان الليل كان يتقدم وهى لا تعود وقلبى يشتد انقباضه من حين الى حين حتى لقد خيل لى انها قد تكون سقطت بها المركبة فجرحت او تكون فاجأتها النوبة فمرضت اوتكون اصيبت بحادث غير هذا فقتلت

كل ذلك خطر لى ما خلا انها تخدعنى فان هذا الظن لم يدر فى خاطرى ولا بد ان يكون هناك سبب عظيم دعاها الى التأخير فكنت كل ما توغلت فى البحث عن هذا

السبب كل ما توقعت حدوث مصاب

ثم دقت الساعة الاولى فقلت فى نفسى

انى ساصبر ساعة ايضا فاذا لم تعد ذهبت الى باريس

وقد اخذت كتابا اشغل نفسى فيه مدة الانتظار فكان الكتاب الذى اخذته رواية مانون ركوت وقد وجدته لا يزال مفتوحا على منضدتها وعلى صفحته أثر الدموع مما يدل على انها قرأت فيه قبلى ولم تمالك عن البكاء

فاطبقت الكتاب بعد ان قلبت صفحاته دون أن أستطيع قراءته فقد كان يحجب حروفه عنى حجاب كثيف من الشك

وتقدم الوقت واربدت السماء وسقط المطر متساقطا على زجاج النوافذ فكنت أنظر الى سريرها الخالى فأتوهمه قبراً وأخاف

ثم فتحت الباب ووقفت مصغيا فلم اسمع غير زمهرة الرياح ولم أر مركبة قادمة

إلى ان دقت الساعة الثانية فلم اعد اطيق الصبر وخرجت من غرفتها الى غرفة الخادمة المجاورة فصحت من

رقادها وسألتنى اذا كانت سيدتها قد عادت

فقلت كلا ولكنها اذا عادت قولى لها انى لم استطع الصبر لقلقى عليها فذهبت الى باريس باحثاً عنها

قالت أتذهب فى هذه الساعة ياسيدى

— نعم

— كيف تذهب واين تجد مركبة

— اذهب ماشياً

— ولكن المطر يتدفق كأفواه القرب

— لا ابالى

— صبراً يا سيدى فانها ستعود واذا لم تعد فلا بأس من ان تنتظر الى الصباح فان مثلك فى الذهاب الآن مثل من يريد الانتحار

— لا خطر علىّ يا ابنتى فقولى لها اذا عادت ما قلته لك

وقد نهضت فجاءتنى برداء يقينى المطر فوضعته على كتفى واقترحت على ان تذهب الى مدام ارنولد علها تجد مركبة فأبيت مدعياً انه بينما تعد المركبة اكون قطعت

نصف الطريق ثم انى فى حاجة الى استنشاق الهواء والى التعب تسكيناً لهياجى

وقد أخذت مفتاح منزل مرغريت فى باريس وذهبت وجعلت فى البدء اركض ولكن الأرض كانت رطبة من الامطار فتعبت واضطررت الى الوقوف للاستراحة وقد ابتلت ثيابى الداخلية من العرق كما ابتلت الخارجية من المطر

ثم استأنفت السير وكان الظلام مشتد الحلك فكنت أخاف فى كل لحظة ان التطم فى الطريق بتلك الاشجار التى كنت اخالها اشباحاً عظيمة تركض إلىّ

و قد رأيت حين سيرى مركبة تسير مسرعة الى جهة بوجيفال فلما مرت بى خامرنى الرجاء ان تكون مرغريت فيهافوقفت وجعلت اناديها باسمها فلم يجبنى أحد واستمرت المركبة فى سيرها

وبعد ساعتين وصلت الى باريس والفجر يكاد ينبثق فلما وصلت الى شارع انتين كانت الساعة قد بلغت الخامسة

وهنالك ايقظت البواب وطالما أحسنت اليه فما منعنى

عن الدخول الى منزل مرغريت فى مثل هذه الساعة

وكان بوسعي ان اسأله اذا كانت موجودة فى المنزل فيقول لى كلا فآثرت ان اشك دقيقتين ايضاً وان ارجو ايضا بهذا الشك

وقد دنوت من غرفتها ووقفت مصغيا فلم اسمع حسا ففتحت الباب ودخلت فكانت الستائر كلها مرخية فخرجت منها وطفت فى جميع الغرف فلم اجد لها أثراً

وعند ذلك عدت الى غرفة زينتها وفتحت النافذة وناديت بريدانس فلم يجبنى أحد

فخرجت من المنزل ولقيت البواب فسألته اذا كانت مرغريت جاءت فى النهار الى بريدانس

قال نعم لقد جاءتا معا الى هنا

— الم تقل شيئا بشأنى

— كلا

— وبعد ذلك ماذا فعلتا

— ركبا مركبة وسارتا بها

فتركته وذهبت الى منزل بريدانس وحاولت الدخول

فاعترضنى البواب قائلا

إلى اين يا سيدى

قلت الى السيدة بريدانس

قال انها لم تعد بعد

قلت أأنت واثق مما تقول

قال نعم يا سيدى وهذه رسالة وردت اليها فى المساء ولم اعطها إياها بعد

وقد أرانى الرسالة فنظرت الى عنوانها عرضا وعرفت خط مرغريت فأخذتها منه وقرأت العنوان فرأيته كما يأتى

« الى السيدة بريدانس ومنها الى الموسيو دوفال »

فقلت للبواب ان هذه الرسالة لى واطلعته على العنوان

قال أأنت هو الموسيو دوفال يا سيدى

قلت نعم

قال لقد ذكرتك فلقد رأيتك مراراً كثيرة تأتى الى هنا فخذ رسالتك

فاخذت الرسالة وخرجت ففضضتها على الطريق فلو انقضت الصاعقة عند قدمى فى تلك الساعة لما انتبهت

وقرأت ما يأتي

«انك حين تقرأ رسالتي هذه يا ارمان اكون اصبحت
« خليلة لسواك فكل شيء قد انتهى بيننا
« عد الى ابيك ايها الصديق والى اختك الطاهرة التي
« تجهل كل نكبتنا فانك ستنسى بقربها جميع ما أساءت به
« اليك تلك الفتاة الساقطة التي يدعونها «رغريت غوتيه
« والتي احبتها هنيهة تلك الفتاة التي ما عرفت معنى الحياة
« الا بقربك والتي ترجو ان لا تطول حياتها بعد الآن »

فلما بلغت الى آخر هـذه الرسالة خلت ان عقلي قد طار شعاعاً وخشيت ان اسقط صريعا على الارض في الشارع وشعرت ان غمامـة كثيفة حالت بين عيني وبين الوجود وان دمي بجملته قد تصاعد الى رأسي وجعل يغلي كما تغلي المياه في المراجل

ثم خف ذلك العارض فنظرت الى ما حوالي وأنا أعجب كيف ان الأرض لا تميد لمصابي ولم أجد من نفسي قوة تعينني على احتمال هذه النكبة التي رمتني بها مرغريت

فذكرت ان أبي لا يزال في باريس واني أصل الى

فنـدقه فى مدة وجيزة وانه مهما كان سبب نـكبتى فهو يشاطرنى فى أحزانى

وقد جعلت اركض الى ذلك الفندق كمن به جنة أو كالسارق يطاردونه حتى وصلت الى الفندق ودخلت الى غرفة أبى فوجدته يقرأ

فالقيت نفسى بين ذراعيه وأنا لا أعلم ماذا أصنع ثم أعطيته رسالة مرغريت وسقطت على كرسى بجانبه فجعلت ابكى بكاء الاطفال

٢٣

وقد كان تأثر أبى عظيما أما أنا فلبثت مدة طويلة لا أصدق انى فى يقظة فكنت أعيد تلاوة هذه الرسالة وأبى بجانبي يجاملنى ويحاول تسليتى بأرق الاقوال

وكان تعب المسير فى الليل وتساقط الامطار على وتلك الرسالة التى تلقيتها قد انهكتنى

فاغتنم أبى فرصة ضعفى وسألنى أن أعده وعداً جازما

بالسفر فوعدته بكل ما أراد لانى ما كنت أستطيع المجادلة كما انى كنت فى حاجة قصوى الى عطف صادق وحنو أكيد وأين أجد هذه العواطف الا بقرب أبى

ولم أعد أذكر شيئاً فقد أصبت بما يشبه الذهول

وكل ما ذكرته بعد ذلك هو انى ركبت مركبة مع أبى فى الساعة الخامسة وانطلقت بنا خارجة من باريس فلم يذهب عنى ذلك الذهول الا بعد خروجنا من باريس فجعلت أبكى بكاء غزيراً

أما أبى فقد علم أن الكلام لا يجدى فى هذه المواقف فسكت وتركنى أبكى دون أن يفوه بكلمة مكتفياً بأن يضغط على يدى من حين الى حين كأنه يذكرنى بوجود صديق بجانبه

وقد نمت فى تلك الليلة قليلا فحلمت بمرغريت وصحوت مرعباً وأنا لا أعلم كيف اتفق وجودى فى مركبة الى أن عادت الحقيقة الى ذاكرتى فأطرقت برأسى دون أن أجسر أن أقول كلمة لأبى عن مرغريت حذراً من أن يقول لى

« لقد نصحتك وقلت لك أن حب هؤلاء الفتيات

لا يدوم »

وما زلنا على ذلك حتى وصلنا الى بلدنا وهو لا يحدثنى فى الطريق الا بأمور خارجة عن حادثتى

وهناك استقبلتنى أختى باكية من فرحها بالتقائى فذكرت كلمة مرغريت برسالتها

ولكنى أيقنت من قصدى انه مهما بلغ من حنو أختى على فانها لا تستطيع أن تنسينى مرغريت

وكان زمن الصيد قد دنا فخطر لأبى أن يشغلنى به ودعا اليه بعض جيرانه وأصحابه فذهبنا بجملتنا الى الصيد

ولكن هيهات أن يشغلنى الصيد عمن أحبه فكنت أضع بندقيتى فارغة بجانبى وأتيه فى مهامه التفكير

كل ذلك وأبى لا ينقطع لحظة عن مراقبتى فكان خوفه شديداً على

أما أختى فانها لم تكن تعلم بشىء من نكبتى ولكنها كانت متعجبة من انقباضى وكآبتى بعد ما عرفت به من الزهو والارتياح

وكان أبى يباغتنى أحياناً وأنا منقطع الى التفكير

والهواجس فأسرع اليه فأصافحه وأسأله المعذرة عما سبب له من القلق والانشغال

ومضى على ذلك شهر وأنا فى أسوأ حال

اريد لانسى ذكرها فكأنما   تمثل لى ليلى بكل سبيل

فقد أحببت كثيراً هذه المرأة ولا أزال أحبها فلا يتيسر لى سلوانها بهذا العهد القريب

ورأيت انه لم يبق لى بد من واحد من اثنين وهما إما أن أعود الى حبها أو اكرهها وانه لا بد لى أن أراها فى القريب العاجل

وقد تمكن منى هذا الخاطر واستفحل أمره بحيث بات يتعذر على الصبر ولقيت أبى فقلت له

لا بد لى من الذهاب الى باريس لقضاء بعض أشغال لا بد منها ووعدته أن أعود مسرعاً بعد انجازها

ولا شك انه أدرك قصدى من هذه الرحلة بدليل انه ألح عليها الحاحاً شديداً كى أبقى

ولكنه رأى أن لا فائدة من الالحاح بل خشى علىّ من نتائج هذا الالحاح فودعنى وهو يكاد يبكى وسألنى أن

أعود مسرعا

وقد سافرت فلم أعرف الرقاد قبل وصولي الى باريس

ولما وصلت اليها لم أدر ماذا أصنع فذهبت الى منزلي

فغيرت ملابسي وذهبت الى الغابات

وبعد ساعة رأيت مركبة مرغريت قادمة من بعد فقد

كانت استردت مركبتها وجيادها

ولكني لم أرها في المركبة فنظرت الى ما حولي فرأيتها

تتنزه ماشية مع امرأة لم أكن رأيتها من قبل

حتى اذا مرت بجانبي امتقع وجهها بصفرة الموت

وابتسمت لي ابتسامة تشف عن الكآبة

أما أنا فكنت اسمع دقات قلبي لشدة خفوقه ولكني

تكلفت عدم الاهتمام وحييتها بتلك الجفوة

فسارت مسرعة الى مركبتها فصعدت اليها وانصرفت

واني اعرف مرغريت حق العرفان فانها اضطربت

اضطرابا عظيما للقائي الذي لم تكن تتوقعه

وهي لا شك قد علمت بسفري مع ابي فاطمأنت ولم

تعد تخشى عاقبة انفصالنا

فلما رأتنى فجأة وجهاً لوجه ورأت اصفرارى ايقنت انى لم اعد الا لغرض من الأغراض

ولو كنت لقيتها حزينة كئيبة اوشقية بائسة لانتقمت منها بمساعدتها بين استمنحت عنها ولما خطر لى ان اتعرض لها بدوء

ولكنى الفيتها سعيدة بالظاهر ورأيت بأم عينى ان عشيقها الجديد أعاد اليها مركبتها وجواهرها فمست كبريائى وقلت فى نفسى انهـا لم تحبنى إلا حب فائدة بدليل انهـا نسيتنى حين عادت اليها تلك الحلى وعلى ذلك فقد بات من العدل ان انغصها كما نغصتنى وان اشقيها كما اشقتنى

وقد ذهبت من فورى الى بريدانس وانا اتكلف الارتياح فاستقبلتنى خادمتها واجلستنى فى إحدى القاعات الى ان تخبر سيدتها

وبعد زمن غير قصير جاءت بريدانس ودخلت بى إلى غرفتها فسمعت صوت فتح باب القاعة الكبرى وصوت خطوات خفيفة فى ارض الدار ثم سمعت صوت إقفال الباب بعنف فقلت لها

أرى أني اثقلت عليك بهذه الزيارة

قالت كلا فقد كانت عندى مرغريت وقد علمت بقدومك فهربت منك وهي التي خرجت الآن

— امرت اخيفها الآن فتهرب مني

— ولكنها تخاف ان تسؤك رؤياها

فبذلت جهداً عنيفاً كى اتمكن من امتلاك نفسى فان تلك المنكودة انما تخلت عنى لتعود اليها حليها ومركبتها واثاثها وقد احسنت صنعاً فلا يجب ان احقد عليها

وبعد ان جالت فى مخيلتى هذه الافكار قلت لبريدانس بلهجة تدل على عدم الاهتمام

لقد رأيتها اليوم

فنظرت إلىّ منذهلة لما رأته من عدم اهتمامى كأنها تقول بنفسها ترى ايكون هذا الرجل نفس الرجل الذى كان بالأمس ثم قالت لى

اين رأيتها

قلت فى الغابات وكانت تصحبها امرأة حسناء فمن هى هذه المرأة

-- اهى شقراء

— شقراء زرقاء العينين رشيقة القوام

— انها اولمبيا وهى فى الحقيقة حسناء فتانة

— مع من هى عائشة

— مع جميع الناس

— واين تقيم

— فى شارع ترونشيت . . لماذا تسألنى عنها أتريد ان تزورها وتعيش واياها

— من يعلم مايكون

— ومرغريت

— انى اذا قلت لا تخطر فى بالى اكون من الكاذبين

ولكنها تخالت شىء بتشكل يدل على الخفة والرعونة فعددت نفسى جاهلا لهيامى بها ذلك الهيام لانى كنت فى الحقيقة مشغوفا بها الى حد التدله

وكنت اقول هذه الأقوال الكاذبة والعرق ينصب من جبينى ولا ادرى ما كان من تأثير كلماتى عليها ولكنها

أجابتني فقالت

انهـا كانت تحبك أصدق حب وهي لا تزال تحبك بدليل انها حين رأتك اليوم أسرعت إليّ واخبرتني انهـا رأتك وهي تضطرب واجفة القلب حتى لقد خشيت عليها من الاغماء

— وماذا قالت لك

— قالت لي « انه سوف يزورك دون شك فاذا فعل فأرجوك ان تلتمسي لي منه الغفران »

— قولي لهـا اني صفحت عنهـا فانها امرأة طاهرة القلب وهي لم تفعل الا ما كنت أتوقعه منها

والحق اني كنت ممتنا لها لما ابدته من صدق العزيمـة ومن كان يعلم كيف يكون مصيرنا لو بقينا على ما كنا فيه فان ذلك هو الجنون بعينه

— وهي ايضاً ستسر كثيراً حين تعلم ما تقوله الآن فان فراقكما لم يكن بد منـه فان ذلك الخبيث الذي كانت اتفقت واياه ان تبيعه منزلها اخبر مدائنيها بذلك فأسرعوا بالمعاملات الرسمية وعولوا على بيع اثاثها بالمزاد العلني في

مدة يومين استيفاء لديونهم

— والآن اوفت دينها

— تقريبا

— ومن الذى أعطاها

— الكونت ز. فانه أعطاها عشرين ألف فرنك ولكن هذا آخر ما أعطاه فانه علم يقيناً انها لا تحبه ولكن ذلك لم يمنعه من أن يكون معها كريم الاخلاق ثم انه استرد منها مركبتها ومجوهراتها ولو رضيت أن تكون معه كما أراد لاعطاها فوق ما يعطيها الدوق

— وماذا تصنع الآن العلها تقيم فى باريس

— انها أبت أن تعود الى بوجيفال بعد رحيلك وأنا التى ذهبت الى منزلها والى منزلك هناك فجئت بجميع حاجاتها وبثيابك فانها عندى تأخذها متى تشاء

ولم ينقص من أمتعتك غير محفظة مكتوب عليها اسمك أرادت أن تبقيها عندها تذكاراً منك الا اذا أبيت فانى استرجعها منها

فشعرت أن الدموع أوشكت أن تجول فى عينى

تذكرى بوجيفال التى كنت فيها من أسعد الناس وحين سمعت أن مرغريت تريد أن تحفظ بتذكار منى فقلت لها بل لنحفظه

ولو كانت دخلت فى تلك اللحظة لكنت ذهبت منى عواطف الانتقام وسقطت جاثياً عند قدميها

واستأنفت بريدانس الحديث فقالت

وبعد فانى لم أرها فى ما مضى من حياتها كما أراها الآن فانها لا تعرف النوم الا غراراً فتذهب الى المراقص والمنتديات حتى انها باتت تفرط فى الشراب الى حد السكر

وقد لزمت الفراش أخيراً ثمانية أيام أثر سهرة طويلة فلما اذن لها الطبيب بالنهوض من فراشها كان أول ما فعلته انها رجعت الى ما كانت عليه وحبذا لو زرتها فرأيتها

قلت ايه فائدة من ذلك فانى زرتك لانك كنت مخلصة لى فى جميع ما مر بى من الادوار ولانى عرفتك قبل أن أعرف مرغريت

وانى ما كنت عشيقاً لها الا بفضلك كما ان هذا الفراق بيننا لم يكن الا بفضلك أليس كذلك

— هو ذاك والحق انى افرغت كل مجهودى فى سبيل افتراقكما ومع ذلك فى ما يبدو انى لم أسىء اليك فلا تحقد على

— بل انى اشكرك منذ الآن

وقد قلت لها هذا القول متهكما لانى أتممت من محادثة هذه المرأة وقمت متأهباً للانصراف فقالت لى

أأنت ذاهب

قلت نعم

قالت متى اراك

قلت قريباً

وقد شيعتنى الى الباب فذهبت الى منزلى وانا اتشوف من قبل الى الانتقام

وقد تمثلت مرغريت عند ذلك انها كسائر بنات الهوى بعد اعتقادى انها ارق الغانيات واشرفهن قلبا واوجههن عقلا فما كنت معها الا فى غرور

ولكن انها باعت حتى مركبة وحلى

هذا ما كنت اناجى به نفسى فى ساعات ارقى

على انى لو امعنت فى التفكير بما كنت اتكلفه من

عدم الاكتراث اهامت يقيناً ان مرغريت لم تندفع مع تيار اللهو كما تفعل الا انطرد ذلك التذكار الذي لا يفتأ يعذب قلبها

ولكن الرجل حين يتس في شهواته تعفر نفسه وينحط الى أسفل الدركات

وان أولمبيا تلك الحسناء التي لقيتها مع مرغريت اذا لم تكن صديقة لها فهي على الاقل تصحبها وتزورها

وكانت عازمة على احياء ليلة راقصة فمات في نفسي

لا شك ان مرغريت ستكون مدعوة اليها وسأحتال على حضور هذه الحفلة

وقد نجحت في مسعاي وذهبت الى تلك الحفلة فوجدت المدعوين قد أخذوا بالرقص وبحثت عن مرغريت فوجدتها ترقص مع الكونت ن. وهو معجب بنفسه ينظر الى الناس نظرات الاختيال كانه يقول لهم

انظروا فان هذه المرأة لي

فاستندت الى المستوقد مقابلة لها وجعلت انظر اليها وهي ترقص فلم تكد تراني حتى اضطربت

اما انا فانى حييتها باليد وبالعينين متكلفاً الارتياح ولكني حين كنت أفتكر انها بعد انقضاء الحفلة لا تعود معى الى منزلها بل مع ذلك الفتى الأبله يصعد الدم الى رأسى واشعر انه لا راحة لى إلا بتكدير صفوهن

وبعد انتهاء ذلك الدور من الرقص ذهبت لتحية صاحبة المنزل

وكانت حسناء بل باهرة الجمال ولها قوام أرشق من قوام مرغريت

ولم يكن لها عشيق فى ذلك الحين فلم يكن يصعب علىّ ان اكون عشيقها وكل ما كان ينبغى لذلك التظاهر بالثروة والكرم كى استلفت انظارها

وقد صحت عزيمتى على ان اتخذها خليلة لى وبدأت تمثيل دورى بمراقصتها فى تلك الحفلة

وبعد نصف ساعة رأيت مرغريت وضعت شالها على كتفيها وخرجت من ذلك المنزل وقد امتقع وجهها بصفرة الأموات

وقد باتت سيئاتي من انتصاراتي ولكنني لم ابلغ حد الكفاية فعرفت ما لي من السلطان على قلب هذه المرأة واستبدلت منه بخطة لا تليق بي

وحين افتكر اليوم انها ماتت اسائل نفسي اذا كان الله يغفر لي ما أسأت به الى تلك المنكودة

وبعد انتهاء الرقص قاموا الى العشاء ثم جلسوا على مائدة القمار فجاءت مجاسي بجانب اولمبيا وجعلت اقامر مجازفا بالذهب مما استلفت إلى انظارها فربحت بمدة وجيزة نحو مائتي جنيه تكدست امامي وهي تنظر اليها نظرات لهف

وقد وفقت في تلك الليلة توفيقا عجيبا كما انها خسرت كل ما لديها فكنت اعطيها كل ما تحتاج اليه من ربحي

وفي الساعة الخامسة من الصباح تفرق المدعوون فحسبت ما بقي لي من الأرباح فبلغ ثلاثمائة جنيها

وكان جميع اولئك المدعوين قد خرجوا دون فلم يتنبه أحد لبقائى اذ لم يكن لى بينهم صديق

وكانت اولمبيا تشيعهم مودعة فلما رجعت وأنا على وشك الانصراف عدت اليها وقلت

لى ما أقوله لك

قالت لترجىء ذلك الى الغد

— بل الآن اذا كنت تأذنين

— ماذا تريد ان تقول لى

— سوف تعلمين

فدخلت بى الى القاعة وهناك قلت لها

لقد خسرت هذه الليلة

— نعم

— وانك خسرت كل ما كان عندك

فترددت فى الجواب فقلت لها

أجيبى بجلاء

— هو ذاك فقد كنت سيئة البخت فى هذه الليلة

— أما انا فقد ربحت ثلاثمائة جنيها وهى لك اذا أذنت

لى بالبقاء عندك فخذيها

وقد القيت الذهب على المائده فقالت لى

!! إذا تقترح على هذا الاقتراح

— لأنى أحبك

— كلا بل انك تحب مرغريت وتريد الانتقام منها بابقائك عندى فان كان مثلى ايها الصديق لا تخدعونه بهذه السهولة

على انى لا أزال لحسن الحظ وافرة الحسن وفى مقتبل الشباب فلا أقبل تمثيل هذا الدور الذى تقترح على تمثيله

— إذن أنت ترفضين

— هو ذلك

— أتؤثرين أن تحبيني من غير مقابل فانى انا ايضا أرفض . تمنى يا اولمبيا فانى لو ارسلت اليك من يعرض عليك هذا المبلغ بنفس الشرط الذى اقترحته عليك الآن لقبلت راضية

ولكنى أردت ان يكون الاتفاق توا بينى وبينك دون أن يحضره ثالث

فاقبلي دون أن تبحثي عن الأسباب التي حملتني على اقتراحي وقولي في نفسك انك جميلة فنانة وانه لا يقتضي وجود أسباب تدعوني إلى حبك غير هذا السبب الوحيد وهو جمالك

ولقد كانت مرغريت من المحظيات مثل أولمبيا ولكنني لم أجسر أن أقول لها في أول مرة لقيتها مثل هذه الاقوال التي أقولها لأولمبيا

ذلك لأني كنت أحب مرغريت حباً صادقا وكنت أعلم يقينا ان البون عظيم بين شعورها وبين شعور هذه الفتاة

بل اني حين كنت اقترح هذا الاقتراح على أولمبيا كنت اشعر من نفسي بنفور منها

وقد انتهت دون شك بقبول اقتراحي فخرجت من عندها في اليوم التالي وانا عشيقها

ولكن شتان بين العشيقين فقد خرجت من عندها دون ان تدع في قلبي أقل أثر بالرغم عما بذلته من العطف والحنو الكاذبين تعويضاً لي عما قبضته من المال

ومن ذلك فقد عرفت كثيراً من الأغنياء سقطوا فى مهاوى الأفلاس حين سقوطهم فى هذه الخازنة

ومنذ ذلك اليوم جعلت أضطهد مرغريت دون اشفاق كلما سنحت لى فرصة

وكانت اولمبيا قد انقطعت بينها وبين مرغريت فاشتريت لعشيقتى الجديدة مركبة وحلى وعدت إلى المقامرة وجاريتها فى كل ما كانت تريده فى ميادين اللهو فلم يمض زمن قليل حتى اشتهرت بها واشتهرت بى عند كل فتيان باريس وفتياتها

حتى ان بريدانس نفسها خدعت بتلك الظواهر وتوهمت انى اعشق اولمبيا حقيقة وانى نسيت بها مرغريت كل النسيان

أما مرغريت فلا أعلم إذا كانت تعلم حقيقة مقصدى أو خدعت بظواهر حبنا كما خدع سواها

ولكنها كانت تجيب على كل ما اضطهدها به كل يوم بعزة وإباء لولم يخدعها اصفرار وجهها فانى كل ما لقيتها لم تكن تستطيع كتمان ما تشعر به من الاضطراب

أما حبي لمرغريت فقد اشتد حتى اوشك أن يستحيل الى كره بدليل انى كنت اسر حين أرى اضطرابها وكآبتها ولكنى كنت حين أتمادى فى الانتقام تنظر الىّ نظرات التوسل فأخجل من نفسى لانتقامى الوحشى وأشعر انى على وشك ان التمس منها الغفران جاثياً عند قدميها

غير ان هذا الندم لم يكن يلبث أن يتبدد كغمامة الصيف وأصبحت اولمبيا تهيجنى عليها وتوغر صدرى حنقاً توهماً منها انها بذلك ترضينى وتنال منى كل ما تبتغيه

وزادت على ذلك انها تطرقت الى اهانتها كلما لقيتها بتلك القحة التى تستخدمها بنت الهوى حين يأذن لها الرجل

الى ان انتهى الأمر بمرغريت انها انقطعت عن الذهاب الى المراقص والملاعب حذراً من أن تجدنا فيها

وعند ذلك جعلت مع اولمبيا نرسل اليها الرسائل فى البريد دون توقيع ولم أدع باباً من ابواب الحطة إلا ولجته فى سبيل انتقامى الشائن

ولا شك انى كنت من المجانين إذ لا يقدم عاقل على

ما أقدمت عليه فكان مثلى مثل السكران هاج بى السكر فارتكب جريمة كانت يده المذنبة فى ارتكابها لا عقله

على انى كنت افعل كل ذلك اعتقادا منى انى أتشفى بانتقامى والحقيقة انى كنت أتعذب عذاب الشهداء

وكفى ان مرغريت كانت تتلقى منى تلك الصدمات بملء السكينة والعزة فكان ذلك يزيد هياجى عليها

واتفق ليلة ان اولمبيا ذهبت الى مكان نسيته واجتمعت فيه بمرغريت وأرادت تحقيرها حسب العادة فانهالت عليها مرغريت بما تستحق حتى اضطرت اولمبيا إلى ترك المكان وعادت الى منزلها غضبى كما حملوا مرغريت مغمياً عليها

وقد أخبرتنى بكل ما جرى بينها وبين مرغريت وانها رأتها وحدها فانتقمت منها لأنها خليلتى وانه لا بد لى ان اكتب لها رسالة احملها فيها على احترام خليلتى بغيابى وحضورى

ومن عجيب أمرى انى وافقتها على ما أرادت وكتبت الى مرغريت كتاباً هائلا وارسلته اليها بعنوانها

وكانت الضربة شديدة هذه المرة بحيث لم تكن تستطيع

المنكودة احتمالها

ولم يكن عندى ريب انها ستجيبنى فعولت على البقاء فى منزلى وعلى أن لا اخرج منه فى ذلك اليوم

فلما كانت الساعة الثانية بعد الظهر طرق الباب ورأيت بريدانس داخلة

وقد حاولت ان امازحها حسب عادتى ولكنها دخلت إلى غضبى وبادرتنى باللوم فقالت

إنك لم تنفك منذ عودتك الى باريس أى منذ ثلاثة أسابيع عن إرهاق مرغريت كأنك تريد قتلها فقد كانت شفيت فعاودتها العلة من حادثة الأمس وهى الآن طريحة الفراش

وعلى الجملة فانها تسالك العفو إذ لم يبق لها شىء من القوى الروحية والجسدية تستطيع بها مناضلتك فى هذا المعترك

فقلت لها

ان مرغريت طردتنى من منزلها وذلك حق لها لا يسعنى اعتراضها فيه واما ان تهين امرأة احبها بحجة انها

خلیای فذلك لا أسمح به على الاطلاق

قالت انك ايها الصديق خاضعاً انفوذ امرأة لا ادابلها ولا عقل

ونعم انك عشيقها ولكن ذلك لا يجبر أن يدعوك إلى تعذيب امرأة لا تستطيع الدفاع

— إذن لترسل لى عشيقها الكونت نصبح متكافئين

— انك تعلم يقينا بانها لا تفعل فدعها فى شأنها يا ارمان فانك لو رأيتها لخجلت من جورك عليها فان ايامها باتت معدودة فى هذه الحياة

وقد اخذت عند ذلك بيدى وقالت

امض اليها فانك إذا زرتها زودت اليها الحياة

قلت ليس فى نيتى ان ارى الكونت

— ان الكونت لا يذهب اليها فانها لا تطيق ان تراه

إذا كانت مرغريت تريد ان ترانى فلتحضر إلى فانها تعرف اين أقيم أما انا فانى لا أذهب الى شارع انتين

— أتحسن استقبالها اذا جاءت اليك

— دون شك

— اذن انى واثقة من حضورها

— احضر

— أبقى فى منزلك هذه الليلة

— سأبقى كل السهرة

— سأخبرها بما كان بيننا والآن أستودعك الله

وقد لبثت فى المنزل دون ان اخبر اولمبيا بأنى لا أزورها فى هذه الليلة فانى كنت أحتقر هذه الفتاة ولا أستخدمها إلا ذريعة فى سبيل انتقامى من مرغريت

وأقمت أنتظر وانا على أحر من الجمر الى أن سمعت قرع الباب فى الساعة التاسعة فكان اضطرابى شديدا حتى انى حين ذهبت الى فتح الباب اضطررت الى التمسك بالجدار حذر السقوط

وفتحت الباب ودخلت مرغريت فكانت مرتدية بملابس سوداء وعلى وجهها نقاب كثيف

وقد دخلت تواً الى قاعة الاستقبال وكشفت نقابها فكانت صفراء كالأموات وقالت لى

هوذا أنا يا ارمان . . . إنك أردت أن ترانى فأتيت

ثم وضعت رأسها بين يديها واسترسلت الى البكاء

فدنوت منها وقلت لها

ما بالك يا مرغريت

فضغطت على يدى دون ان تجيب لأن صوتها خنقته العبرات وبعد ان سكن جأشها قليلا قالت لى

انك اسأت إلىّ كثيرا يا ارمان اما انا فلم اسىء اليك بشىء

فابتسمت ابتسامة شفت عما يخامر قلبي من القنوط الأليم فقلت لها

اتقولين لا شىء

— نعم لا شىء إلا ما اكرهتنى الحوادث على فعله

وانى سوف ازعجك ياارمان فقد اتيتك لألتمس منك قضاء امرين اولهما انى التمس منك العفو عن إساءتى امس إلى اولمبيا

وثانيهما انى اسألك العفو والتنازل عما تريد ان تصنعه بى ايضا فانى لم اعد اطيق الاحتمال

وانك اسأت إلىّ منذ عودتك الى باريس إساءآت لا قبل لى بتحمل جزء منها الآن

ورجائى انك تشفق على وان تعلم ان من كان مثلك شريف النيـة طاهر القلب لا ينتقم من امرأة مريضة حزينة مثلى

خذ يدى بيـدك يا ارمان يتبين لك انى محمومة فانى برحت الفراش وجئت اسألك رحمة لا صداقة

فأخذت يدها بيـدى وشعرت انها تلتهب من الحمى فأدنيت الـكرسى التى كانت جالسـة عليها من المستوقد وقلت لها

أتحسبين يا مرغريت انى لم أتعـذب تلك الليلة التى انتظرتك فيها فى بوجيفال وحين عـدت الى باريس باحثا عنك فاوجدت غير تلك الرسالة التى كادت تذهب بصوابى فكيف تمكنت من خـديعتى وأنت تعلمين انى لا أحبك بل أعبدك

— دع هذه الأحاديث يا ارمان فانى ما أتيت للمباحثة فيها بل أتيت اليك كى لا ألقاك بعد الآن لقاء عدو

وكى اصافح يدك مرة اخرى

ان لك خايلة حسناء صبية وانك تحبها كما يقولون فمش معها سعيداً يا ارمان وانسنى

— وانت سعيدة ايضاً دون شك

— أترى فى وجهى دلائل السعادة يا ارمان.. لاتهزأ بمصابى فانك تعلم مقداره وسببه اكثر من كل الناس

— لقد كانت سعادتك منوطة بك هذا اذا كنت شقية كما تقولين

— كلا كلا ايها الصديق فقد كانت الحوادث فوق إرادتى وانى اخضع لعواطفى كما تتوهم وكما تقول بل لسبب خطير سوف تعلمه يوماً وتغفر لى

— لماذا لا تقولين هذا السبب اليوم

— لأنه لا يقرب بيننا بعد استحالة القرب ولأنه يبعدك عن قوم لا يجب ان تبتعد عنهم

— من هم هؤلاء الناس

— لا استطيع ان اذكرهم لك

— اذن انت تكذبين

فنهضت واتجهت نحو الباب

ولكنى أسرعت فحلت بينها وبينه وقلت لها

كلا انك لا تذهبين

— لماذا

— لأنى لا أزال أحبك بالرغم عن إساءتك إلى وأريد ان تبقى عندى

— انطردنى غداً اليس كذلك . . كلا لقد قدر لنا الفراق فلا سبيل الى مناوأة القدر

واننا إذا عدنا إلى ما كنا فيه فانك تحتقرنى أما الآن فانك تكرهنى

قلت كلا يا مرغريت بل انى أنسى كل ما مضى ونعيش سعيدين كما كنا

فهزت رأسها إشارة إلى الشك واستطردت حديثى فقلت

الست عبدا لك فاصنعى بى ما تشائين

فنزعت رداءها وتبعتها والقتها على مقعد وفككت ازرار ثوبها إذ شعرت بان الدم قد صعد إلى رأسها ويكاد

يخنقها

وتلا ذلك سعال جاف فقالت لي

ارسل من يطلق سراح مركبتي

فذهبت انا بنفسي وأطلقت سراح السائق

وعند ما رجعت وجدت مرغريت بجانب النار وأسنانها تصطك من البرد

وقد حملتها بين يدي ودخلت بها غرفتي فوضعتها فوق سريري وجلست بجانبها وجعلت ادفئها بالقبلات الحارة فلم تكن تقول شيئاً بل تبتسم

وكانت ليلة عجيبة في بابها فقد خيل لي ان حياة مرغريت كانت تسيل مع قبلاتها من شفتيها

وقد شعرت اني احبها حبا يتجاوز كل وصف حتى لقد خشيت ونحن في تيار ذلك الغرام من ان اقتلها كي لا تكون بعدي لسواي

فاننا لو اقمنا شهرا واحدا على مثل ما كنا فيه تلك الليلة لأصبحت جثة من غير روح

وعند الصباح نهضنا من النوم وهي مصفرة الوجه

فلم تقل لي كلمة بل كنت ارى من حين إلى حين دمعتين تقفان على وجنتيها كلؤلؤتين ثم تفتح ذراعيها لتضمني وتسقط خائرة القوى فوق السرير

واقد خيل لى فى بعض تلك الاحوال انى استطيع نسيان ما مر بى بعد مبارحتى بوجفال فقلت لها

اتريدين ان نسافر و نترك باريس

فقالت لى بلهجة تدل على شيء من الذعر

كلا كلا فاننا نكون من اشقى خلق الله ولا استطيع ان اسعدك فى شيء

ولكن ثق انه طالما بقيت لى ذرة من الحياة كنت لك فى اية ساعة شئتها من الليل او النهار

فلا تحاول ان تشرك حياتى بحياتك فانك تشقى وتشقيني وانى لا أزال جميلة فتمتع بهذا الجمال فهو لك ولكن لا تسألني المزيد. وعندما انصرفت رغبت من تلك الوحدة التى تركتني فيها فمرت بى ساعتان وأنا جالس فى المكان الذى كانت جالسة فيه وانا اسائل نفسى كيف اصنع بين هاتين الموجتين اللتين تتجاذبانى وهما حبي وغيرتى

وفى الساعة الخامسة وجدت نفسى عند باب منزلها وأنا لا أعلم كيف وصلت اليه

وقد فتحت لى الخادمة فسألتها عن مرغريت فقالت لى انها لا تستطيع قبولك

قلت لماذا

قالت لأن الكونت هنا وقد أمرنى ان لا أدع أحداً يدخل

قلت هو ذاك فانى قد نسيت

وقد رجعت الى منزلى كانى سكران اعلمت ما خطر لى أن أصنعه من الأعمال الشائنة فى تلك الساعة التى هاجت غيرتى حتى وشكت ان تقتلنى

ان تلك الغيرة اوهمتنى ان مرغريت كانت تخدعنى وانها لم ترد بكل ما فعلته غير الهزء بى وانها قالت للكونت مثل هذه الاقوال التى كانت تقولها لى طمعا بورقة الف فرنك تقبضها منه فقمت إلى المنضدة وكتبت اليها ما يأتى

« انك ذهبت من عندى مبكرة فأنسيتني ان ادفع لك ثمن ليلتك الذى تجدينه فى طيه »

ولما ارسلت تلك الرسالة اليها خرجت من المنزل لاتلهى عن التفكير في هذا الشأن

وقد ذهبت إلى أولمبيا فوجدتها تقيس ثوبا جديدا فجعلت تثني بتحية تستقبلني ثم سألتني شيئا من المال فاعطيتها ما ارادت وعدت الى المنزل

اما مرغريت فانها لم تجبني فاتفق وانا بحالة لا تصفها الاقلام لاضطرابي

وفي الساعة السابعة وردتني رسالة مختومة علمت انها من مرغريت ففضضتها بيد ترتجف فوجدت انها ارجعت لي المال الذي ارسلته اليها دون ان تكتب لي كلمة

فسألت الرجل الذي جاء بها اذ لم يكن من خدمها

من اعطاك هذه الرسالة

قال سيدة كانت مسافرة مع خادمة غرفتها إلى بولونيا وقد اوصتني ان لا اجيئك بهذه الرسالة الا بعد ان تتوغل مركبتها في السير

فأسرعت إلى منزل مرغريت فعلمت انها سافرت في الساعة السادسة الى انكلترا

ولم يكن لدىّ ما يشغلنى فى باريس وكان صديق لى يريد ان يسافر سائحا إلى الشرق فخطر لى ان اصحبه

وقد كتبت الى ابى عما انويه من هذه السياحة فرضى عنها وارسل لى ما احتاج اليه من المال ورسائل التوصية

وبعد اسبوع سافرت من مرسايا

ولم اعلم بمرض مرغريت القاتل الا حين كنت فى الاسكندرية فقد عرفت هذا النبأ من صديق لى كان قدم حديثاً إلى تلك المدينة

فكتبت اليها ذلك الكتاب الذى اجابتنى عليه كما اخبرتك والذى وصلنى وانا فى طولون

فبرحت طولون من فورى عائداً الى باريس فلقيتها حينئذ كما اخبرتك وانت تعلم البقية

والآن لم يبق عليك ايها الصديق الا ان تقرأ تلك الرسائل التى كتبتها قبيل موتها واودعتها عند جوليا ديبارت اذ لا بد من قراءتها لتكملة الحديث الذى رويته لك

٣٥

وكان ارمان قد تعب كثيراً من هذه الحكاية التى رواها لى فوضع يده على عينيه وأطبقهما بعد ان اعطانى تلك الرسائل إما ابفتكراو انه كان يحاول الاستراحة بالرقاد

وبعد هنيهة شعرت انه قد نام ولكنه نام نوماً خفيفا يفيق منه لأقل حركة

فقرأت تلك الرسائل التى أرويها للقراء على علاتها دون أقل زيادة او نقصان

الرسالة الاولى

نحن اليوم فى الخامس عشر من شهر كانون الأول وأنا مريضة منذ ثلاثة او أربعة أيام

وفى هذا الصباح لزمت الفراش والغيوم مربدة فى السماء وأنا شديدة الكآبة

وليس عندى أحد يا ارمان فجعلت افتكر بك

أين أنت الآن وانا اكتب هذه السطور : إنك بعيد جداً عن باريس كما قيل لى ومن يعلم فقد تكون هذه الرحلة أنستك رغريت

على انى أتمنى لك كل خير وسعادة فانى لم تمر بى ساعة هناء فى حياتى الا كنت مدينة لك فيها

ولقد غالبت نفسى وحاولت ان اكتم عنك حقيقة السبب فى منهجى السابق فلم استطع

وكتبت اليك رسالة لم تخطها يدى بل استعنت عليها بفتاة مثلى

على ان مثل هذه الرسالة يحق لك ان تعدها كذباً إلا متى لقيت خالقى بعد الموت فانها لا تعود رسالة بل تصبح لديك بمثابة اعتراف

أنا اليوم مريضة ولا بد لى أن أموت بهذه العلة فقد طالما حدثنى قلبى انى سأموت فى شرخ الشباب

« إن امى ماتت مصدورة وهذا هو الارث الوحيد الذى تركته لى بعد موتها

ولكنى اذا كنت اوثر الموت للخلاص من عذاب هذه الحياة فانى أحب ان أموت وانت تجهل حقيقة أمرى

هذا اذا كنت لاتزال بعد عودتك تذكر تلك الفتاة المنكودة التى أحببتها قبل سفرك

وهذه هى الرسالة التى استكتبتها كما ذكرت لك فقد نسختها بخط يدى كى تكون أقرب الى تصديقك

انك تذكر يا ارمان كيف اننا بوغتنا بقدوم أبيك حين كنا فى بوجيفال

. وانك تذكر ذلك الرعب الذى تولانى حين جاء الخادم يدعوك اليه

ثم انك تذكر ما كان بينك وبينه على ما اخبرتنى به فى المساء

فاعلم انه فى صباح اليوم التالى بينما كنت أنت فى باريس تنتظر أبيك فى فندقه دون ان يعود جاءنى رجل ودفع إلى رسالة رأيت انها من أبيك

وهذه الرسالة التى تجدها فى طى هذه سألنى فيها كما ترى ان اتخذ حجة لابعادك عن المنزل فى اليوم التالى

لانه يجب ان يرانى

وقد اوصانى وبالغ فى الوصاية ان لا ادعك تعلم شيئاً من قصده فى زيارتى

وانك تذكر كيف ألححت يومئذ عليك بأن تعود ثانية الى باريس للقاء أبيك

وقد امتثلت لى وذهبت فجاءنى أبوك بعد ساعة

ولا أصف ما لقيته ساعتئذ من جفاء أبيك وتقطيب حاجبيه فقد كان من اولئك الناس الذين يتوهمون ان كل محظية لا قلب لها ولا عقل ولا ضمير وانها آلة لاستخراج الذهب وانها تضغط على اليد التى لا تعطى حتى تهشم جلدها وتكسر عظامها دون رحمة ولا اشفاق

وكان قد كتب لى رسالته بملء الرقة بحيث لم أجد بداً من موافقتى على استقباله

فلما جاء لم يكن على شىء من تلك الرقة بل كان يكلمنى بلهجة ملؤها العظمة ثم تجاوزها الى القحة ثم تعداها الى الانذار والوعيد فى أحاديثه الاولى

الى ان اضطررت مكرهة الى اخباره انى فى منزلى

وانى لا أأذن له ان يناقشنى الحساب عن حياتى السابقة إلا بسبب عطفى الصادق على ولده

فسكن ثائره قليلا بعد هذا القول ومع ذلك فانه قال ل انه لا يطيق ان يرى ولده يخرب بسببي

رانى حقيقة من الحسان ولكن مهما بلغ من جمالى فلا يحق لى ان أتخذه ذريعة لاستنزاف ثروة فتى لا يزال فى مقتبل الشباب وقتل مستقبله بمثل هذه النفقات التى تلقى به لا محالة الى هاوية الخراب

وعلى هذا القول لا يوجد غير جواب واحد وهو أن اقنعه بالبرهان انى منذ كنت خليلتك لم تنفق على درهماً فى سبيل استبقائى أمينة لك وانى لم اتطلب منك شيئاً فى هذا السبيل

وقد أريته وصولات الاشياء التى رهنتها فى بنك الرهونات وتواريخها

ثم اخبرته بما كنت عزمت عليه من بيع منزلى لأفى ديونى كى أعيش وإياك بما يبقى لى دون ان ارهقك بالنفقات

واخبرته بعد ذلك بما وجدناه من النعيم بهذا الحب وكيف انه كان السبب الاكبر برجوعي عن العيش القديم في حين اني لو أردت جمع الأموال لما عدمت مصادرها

وقد انتهى الأمر بأبيك انه مد يده إلى مصافحا واعتذر لي عن لهجته السابقة

ثم نظر إلى نظرة عطف وقال لى

إذن ياسيدتي لااسألك ما اريد التماسه منك بالتأنيف والوعيد بل بالرجاء والتوسل

والذي اسألك إياه بل التمسه منك هو ان تضحى ايضا تضحية أشد من جميع ما ضحيته الى الآن بسبب ولدى

نرجف قلبي لهذه المقدمة

ودنا ابوك مني فأخذ بيدي ومضى في حديثه فقال

أرجوك يا ابنتي اذن لا تحملي ما سأقوله لك على محامل سوء القصد بل اعلمي ان الحياة ميدان شقاء وانه قد يعرض للمرء احوال تضطره ان يغالب فيها عواطف قلبه ويتغلب عليها

وانك كريمة القلب ومخائل السلامة ظاهرة بين

عينيك ولك من المروءة وحسن النية وجليل صفات خفيت على كثيرين من النساء اللواتي تحتقريهن دون شك

ولكن تصوري ايتها العزيزة انه بجانب الحليلة توجد العائلة وان الحب قد احتلت بالواجب وان عصر الصبي وزمن اللهو يتلوه زمن الجد والعمل وهو التوسد الذي يجب ان يكون الفتى فيه على حالة تضمن مستقبل ايامه

وان ولدي ليس من اهل الثروة ومع ذلك فقد حاول ان يتخلى لك عن تلك الثروة القليلة التي ورثها من امه

ولو كان رضى منك تلك التضحية التي أردت ان تضحيها في سبيله لقضى عليه شرفه وكرامته ان يتخلى لك في مقابل ذلك عن كل ما يملكه وما هو غير ذلك الارث

ولكنه لا يستطيع ان يقبل منك تلك التضحية حذراً من ان يقضي على شرفه القضاء المبرم

ذلك ان الناس لا يعرفون حقيقة أمرك وامره ولا يعتبرون ان ارمان يحبك وانك تحبينه وان ذلك يكون من أسباب سعادته وتوبتك

بل انهم لا ينظرون إلا لأمر واحد وهو ان أرمان

دوفال قد رضى من محظية (وانى اسـألك المعذرة عن هذا التعبير) أن تبيع كل مقتنياتها من أجله

ثم يأتى ذلك اليوم يوم النـدم وتقريع الضمير وهو آت لا بد منه فتجدين ويجد انكما مقيدان بسلسلة من الحديد لا يمكن لكما ان تكسراها

وما ذا تصنعان فى ذلك اليوم فانك تكونين قد فقـدت صباك وهو يكون قد خسر مستقبله وأنا ذلك الاب المسكين لا يبقى لى غير المكافأة من ولد وانا انتظرها من ولدين

إنك يا ابنتى لا تزالين فى مقتبـل العمر ولك جمـال يسحر العقول فستنسيك الايام هذا الحب

وإنك كريمـة القلب طاهرة النيـة فستكفرين عن سيئاتك الماضية بحسناتك المستقبلة

وانظرى الى ما أنا فيـه يهن عليك الأمر فان ارمان لا يحبك إلا منذ أربعة اشهر

ولـكنها كانت كافية لأن تدعه ينسى اخته وأباه فقد كتبت اليه أربع مرات دون ان يجيبنى مرة حتى انه قد

أموت دون ان يعلم ؟ونى

ومهما يكن من تلك الخطة التى عزمت عليها فان ارمان يحبك فلا يطيق ان يراك فى حاجة الى النفقات وانت على ما انت عليه من الجمال ولا يستطيع ان ينفق عليك من ماله وهو لا مال له فما عساه يصنع حين تبلغين وإياه إلى هذا الحد

ولقد علمت انه قامر وعلمت انك لم تعلمى ولكنه قد يخسر بساعة ما جمعته بأعوام مهراً لأخته وله ولأيامى الأخيرة

وبعد فهل أنت واثقة من انك لا تعودين الى ذلك العيش الذى تخليت عنه من أجله

ثم هل انت واثقة وقد احببته من انك لا تحبين سواه ألا تتوقعين بسبب هذا الارتباط ان تحول الحوائل دون مستقبل عشيقك اذا تسلطت فى قلبه عواطف الاطماع على عواطف الحب حين يتجاوز طيش الصبى وعمر الغرور فلا تستطيعين ان تعزيه

تمعنى فى كل ذلك يا سيدتى فانك تحبين ارمان حباً صادقاً وهذا لا ريب فيه فبرهنى له عن صدق هذا الحب

بالبرهان الوحيد الذى بقى لك وهو ان تضحى حبك فى سبيل مستقبله

انه الى الآن لم تحدث نكبة بعد بسبب هذا الحب ولكنها آتية لا محالة وستكون أشد كثيراً من النكبة التى أتوقعها

ازاء مان تديغار عليك من وراء الهواء وقد يتقاتلان واخيراً يمكن ان يصبح قتيلا فى هذا المعترك

ألا ترى مثل هذه الحوادث فى كل يوم فتصورى كم يكون بلغ ألمك حين يأتى أبوه المسكين يناقشك الحساب عن حياة ولده التى ائتمنك عليها

وهنا لا بد لى يا ابنتى ان اخبرك بكل شىء فاعلمى إذن السبب الذى حملنى على القدوم الى باريس

ان لى ابنة صبية حسناء وطاهرة كالملائكة

وهى ايضاً تحب وقد عقدت كل آمال حياتها المستقبلة على هذا الحب

وقد كتبت عن ذلك الى ارمان ولكنه كان منشغلا بك فلم يجبنى على رسالتى هذه

ان ابنتى على وشك الزواج بالفتى الذى تحبه وعلى أهبة

الانتظام فى سلك اسرة شريفة تحب ان يكون كل ماحواليها شريفاً .

اما اسرة هذا الفتى الذى سيصاهرنى فقد عرفت كيف يعاملنى اذ كان فى البيت وتوسمت فى بنسخ عند الخطبة اذا استدر ارمان على شوايتها نوايا

والآن دعاءى يا سيدتى ان مستقبل ولدى الذى لم يسىء اليك والذى يحق له ان يعتمد على المستقبل اصبح بين يديك فهل يحق لك بل هل تجدين من نفسك قوة تعينك على هدم هذا المستقبل

انى أستحلفك بحبك وبتوبتك يامرغريت ان تعيدى إلى سعادة ولدى المفقودة وأنت فاعلة باذن الله

وقد بكيت كثيراً يا ارمان حين كنت أتمعن بأقوال أبيك وحين كنت أجد ان كل الحق فى ماقاله

بل كنت اقول فى نفسى ما لم يجسر أبوك على قوله لى وما اوشك مراراً أن يقوله لى

وهو انى لست سوى فتاة محظية وانى مهما ذكرت من الاسباب الداعية الى ارتباطنا فانها لا تخرج عن حد

وان حياتى السابقــة لا تأذن لى أن أطمع بمثل هذا الاتحاد مع رجل شريف اتحاداً لا يفرق فى شيء عن الزواج المشروع

وعلى الجملة فقد كنت أحببت حباً صادقا يا ارمان وان لهجة أبيك الحنونة حين كان يحدثنى واحترام هذا الشيخ الجليل الذى اطمع بنيله واحترامك الذى لا بد لى من نيله حتى وقفت على حقيقة امرى معك

كل ذلك يا ارمان ولد فى قلبى عواطف نبيلة رفعتنى فى عينى نفسى وأقدمت على ما أقدمت

وانى حين كنت أفكر ان هذا الشيخ الجليل الذى يسألنى الاحتفاظ بمستقبل ولده سيسال ابنتــه ان تذكر اسمى فى صلواتها كما تذكر اسم صديقة خفية كنت أتبدل من حال الى حال حتى انى كنت افتخر وأعــد نفسى شيئاً مذكورا

والخــلاصة انى بعد ما سمعت كل ما ذكرته لك من أبيك مسحت دموعى التى كانت تتساقط كالمطر وقلت له

إذن انت تعتقد يا سيدى انى أحب ولدك

قال نعم

قلت اتعتقد ايضاً انى لا أحبه حب الغانيات امثالى اى انى أحبه حباً مجرداً عن كل غاية

قال نعم

قلت أتعتقد ايضاً انى عقدت على هذا الحب كل امانى حياتى وانى عولت على ان اجعله كفارة عن حياتى السابقة

— هذا لا ريب فيه

— اذن تفضل يا سيدى وعانقنى كما تعانق ابنتك

وثق ان قبلتك وهى القبلة الوحيدة الطاهرة التى عرفتها ستعيننى على تضحية حبى

وانى اقسم لك انه لا يمر أسبوع حتى يعود ولدك اليك

وقد يعود تعساً منكوداً ولكن نكده وشقاءه لا يدومان بل يشفى من حبه الى الأبد

فقبل جبينى وقال لى

انك شريفة القلب يا مرغريت وانك ستقدمين على

أمر سيكون لك اجره عند الله

ولكنى أخاف ان لا تتمكنى من الفوز على ولدى

— اطمئن يا سيدى فانه سيكرهنى

ولا بد لى أن أضع حاجزاً حصيناً بينى وبينه يقينى وقيه

وقد كتبت الى بريدانس اخبرها انى رضيت بشروط الكونت ن. وعهدت اليها ان تخبره بذلك وانى سأتعشى معه ومعها فى تلك الليلة

وقد ختمت الرسالة حين فرغت من كتابتها وعنونتها باسم بريدانس ثم دفعتها الى ابيك ورجوته ان يرسلها الى بريدانس حين وصوله الى باريس

وقد سألنى عن فحوى هذه الرسالة اذ كان يعلم انها كتبت فى شأنك فقلت له

انها تتضمن سعادة ولدك

فعانقنى ايضاً وشعرت بدموعه وهى دموع الامتنان قد سقطت على جبينى فشعرت ان هذه المدامع خير مطهر لى من آثامى

وعند ما دنت الساعة التى استسلمت فيها الى رجل

ـ.والـ اشرق وجهي بالـكبرياء حين ذكرت بماذا كوفئت
عن هذه الـ لة الجديدة

ولم اكن استغرب ذلك يا ارمان فقد دائما فات لي
عن أبيك أقوالا تدل على انه من خيرة الاشراف مصدقا
الخبر المبر

وبعد ودعني ابوك فركب مركبته وانصرف والفرح
ملء قلبه إذ لم يكن يطمع ان اضحى له قلبي بهذه السهولة

أما انا فاني امرأة فلم أملك نفسي عن البكاء حين اقيتك
أول مرة بعد هذه الحادثة

ولـكني ملـكت نفسي عن التمادي في الضعف ولم
أندم على ما كان

والآن فهل أحسنت بما فعلت ٠

هذا الذي اسائل نفسي عنه اليوم وقد لزمت الفراش
فلا اخرج منه كما أرى إلا الى ظلمة القبر

ولقد كنت شاهدا ما كان حين دنت تلك الساعة
الرهيبة ساعة الفراق الذي لم يكن بد منه

فان أباك لم يكن معي فيميتني بأقواله حتى لقد خطر

لى مرارا ان اعترف لك بكل ما جرى

وما ذلك إلا لخوفى من ان تكرهنى وتحتقرنى

وان هناك أمرا قد لا تصدقه يا ارمان

وهو انى صليت الى الله وتوكلت اليه ان يشدد قلبى.

ولا شك انه قبل تضحيى ومنحنى ما سألته إياه من القوة

وكان أشد مالقيت ساعة تعشيت مع ذلك الكونت

فكنت فى أشد الاحتياج الى تلك القوة التى خشيت ان أفقدها

ومن عساه يظن انى انا مرغريت غوتييه أخاف هذا الخوف بل ارعب هذا الرعب من عاشق جديد

وقد أفرطت فى الشراب لأنسى فسكرت ولما استفقت وجدت نفسى فى فراش الكونت

هذه هى الحقيقة بجملتها يا ارمان فاغفر لى اذا وجدت مجال العفو ذا سعة

أما انا فقد غفرت لك كل ما اسأت به الىّ الى الآن

٦٣

وأنت تعلم ما كان بعد تلك الليلة الهائلة كما أعلمه

ولكن الذى لا تعلمه والذى قد لا يخطر لك فى بال هو ما لقيته من العذاب بعد ذلك الفراق

فلقد اتصل الىَّ ان اباك قد سافر وإياك

وكنت واثقة انك لا تستطيع ان تبقى مدة طويلة بعيداً عنى فلم اعجب يوم لقيتك فى الغابات ولكنى اضطربت

وقد بدأت منذ ذلك الحين سلسلة عذابى اذ لم يكن يمر بى يوم حتى تفاجئنى باهانة جديدة

وكنت أتلقى إهاناتك بالصبر بل بالسرور لأنى كنت استدل منها انك لا تزال تهوانى

بل انى كنت اعتقد اعتقاداً راسخاً انه بقدر ما تضطهدنى وتبالغ فى عذابى أعظم فى عينيك حين تقف على حقيقة أمرى

فلا تعجب يا ارمان لشهيد يفرح بعذبه ولقتيل يرضى عن قاتله فاقد فتح حبك قلبي وملأ فراغه اشعة نبيلة

على انى لم اكن قوية كما كان يجب ان اكون فقد مر بين فراقك وبين عودتك مدة طويلة احتجت فيها ان التجىء الى عاداتى السابقة بل الى الافراط فيها اذ كنت أخاف ان يذهب عقلى

ولذلك كنت اذهب الى كل الحفلات والمراقص بل كنت افرط فى الشراب كما اخبرتك بريدانس

ولم اكن افعل ذلك الا على رجاء الموت سريعاً إذ كنت أرى ان الموت إحدى الراحتين

وقد صح حسابى فانى لا أخرج من الفراش الا الى القبر يا ارمان كما قلت لك

ذلك انى اشعر بان قواى تنحط تباعا وانى حين ارسلت اليك بريدانس كنت قد بلغت اقصى غاية من الانحطاط الجسدى والروحانى حتى لم يعد لى طاقة على احتمال الاضطهاد

وانى لا اذكرك يا ارمان بذلك الجزاء الذى جازيتنى به عن حبى بل عن برهان حبى الاخير

ولا بتلك الاهانة التى طردتني طرداً من باريس ليلة جيئتك الى ما أردت وانا سكرى بخمرة الماضى

أتحسب يا ارمان انه كان يحق لك ان تهينني الى هذ الحد وان ترسل لى اجرة تلك الليلة

ولكني اغفر لك كل ما اسأت به الىّ حتى هذه الاساءة وقد تخليت فى باريس عن كل شىء حتى ان اولمبيا خالفتني مع الكونت ن. وعهدوا اليها كما قيل لى ان تخبره عن اسباب سفرى

وكنت أعلم ان الكونت ج. فى لندرا وهو من اولئك الرجال الذين لا يندفعون فى حب امثالى بل يحبهن لمجرد اللهو

ومتى فارقوهن يبقون اصدقاء لهن فلا تحمل قلوبهم عليهن شيئاً من الحقد

وعلى الجملة فان هذا الكونت من كبار الاسياد فلا يكشف لنا غير جانب من قلبه واما كيسه فيفتحه من الجانبين

وهو الذى خطر لى حين اهانتك الاخيرة فذهبت اليه فى لندرا فاستقبلنى بملء الاحتفاء

وقدكان مرتبطاً يومئذ مع امرأة نخشى اذ يهيج غيرتها
متى عرفت بأمرنا
وقد عرفني بأصحابه ودعوني الى العشاء فعلق بي
واحد منهم ورضيت بكل ما اقترحه عليّ من الشروط
وما عساى ان اصنع ايها الصديق
فلقد خطر لى ان انتحر ولكني خشيت ان يبادرك
الندم وتقريع الضمير فيكدر ان صفو حياتك
وبعد فأية فائدة للمرء من الانتحار حين يكون مشرفاً
على الهلاك وواقفاً عند باب الموت
وقد عشت هناك عيشاً يفضله كل موت اذ كنت
شبه آلة من غير روح تديرها الاهواء كما تشاء
ثم عدت الى باريس وسألت عنك فقيل لى انك
سافرت سفراً بعيداً الى الشرق
فسئمت الحياة وأردت التعجيل بفنائى
وقد حاولت ان استرد رضى الدوق كى استعين به
على ما أردت ان اتمادى به فى اللهو
ولكني كنت جرحت هذا الشيخ جرحا لا يندمل

وان الشيوخ لا يطيقون الصبر ليقينهم انهم غير خالدين

ثم تساطت عليّ العلة وتمكنت مني اى تمكن فاصفر وجهي ونحل جسمي واشتدت كآبتي وذهب الابتسام من في

وان من يشتري البضاعة لا بدّ له من فحصها قبل الشراء فتفرق عني الفتيان ومالوا إلى الفتيات الحسان بعد ذهاب جمالي فرغبوا بهن عني

وهذه هي حياتي الى أمس

والآن فان العلة قد اشتدت بي فكتبت الى الدوق أسأله شيئاً من المال اذ لم يكن لي شيء وقد عاد الدائنون يطالبونني بديونهم دون اشفاق .

ولا أعلم اذا كان يجيب الدوق ملتمسي

اواه يا ارمان لو كنت في باريس لكنت اعظم عزاء لي عما أنا فيه

الرسالة الثانية

في ٢٠ دسمبر

لقد اربدت السماء كأنها غضبى عليّ وانقضت الصواعق وتساقطت الثلوج وأنا وحدى فى منزلى

وانى مصابة منذ ثلاثة أيام بحمى شديدة منعتنى عن ان اكتب اليك ولو سطراً

على انه لم يحدث عندى شيء جديد فانى كل يوم أرجو ان يردنى كتاب منك

ولكن لا يرد وان يرد وا اسفاه

ذلك ان الرجال قدت قلوبهم من الصخر وهم لا يعرفون معانى الغفران

أما الدوق فانه لم يجبنى فاضطررت ان ارسل بريدانس الى ملجأى الوحيد أى الى بنك الرهونات

وان الدم لا يزال يخرج من صدرى فلو رأيتنى على

ما أنا فيه لتفطر قلبك من الاشفاق

وانك سعيد يا ارمان لوجودك الآن فى بلاد حارة تشرق فيها الشمس خلافا لى، فانى فى بلد تجمد فيها الحياة وما أشد ثقل هذا البرد على صدر أمثالى

ولقد نهضت اليوم من سريرى فمشيت قليلا فى ارض غرفتى وأزحت ستارة النافذة ونظرت من زجاجها الشفاف الى شوارع باريس فذكرت ذلك العيش السابق الذى اعتزلته

ولقد رأيت بعض الذين عرفتهم يمرون بالشارع سراعا فرحين لا هم لهم تنقبض له صدورهم

ولكنى ما رأيت واحداً منهم التفت الى نوافذى ورمقها بنظرة

على انه جاء بعض الفتيان فى بدء مرضى فكتبوا اسماءهم ولم يزرنى أحد من الذين كنت اعتقد انهم أخلص الناس لى

اما انت فانك لم تكن تعرفنى بل كنت لقيتنى مرة وخرجت مغضباً لما ساءتك به من القحة

ومع ذلك فقد كنت تزورنى كل يوم فى خلال مرضى الأول وتسأل مستطلعا عن حالى

وها انى مريضة اليوم وانى أحبك حبا لم يعرفه قلب امرأة منذ الوجود

ومع ذلك فانك بعيد عنى وانك تلعننى ولا يردنى منك كلمة عزاء مما انا فيه

ولكنى واثقة ان الصدفة وحدها دعتك الى اعتزالى ولو كنت فى باريس لما تخليت عنى ولما اعتزلت لحظة غرفتى

الرسالة الثانية

فى ٢٨ دسمبر

لقد منعنى طبيبى عن ان اكتب كل يوم وذلك لان الذكرى تشوقنى فتزيد الحمى

ولكنى أمس تلقيت رسالة سررت بها كثيراً وكانت لى خير معين لذلك تمكنت من ان اكتب اليك اليوم

اما هذه الرسالة فقد وردتنى من أبيك وهذا بيانها

« سيدتى

« لقد علمت الآن انك مريضة ولو كنت فى باريس

« لأسرعت بنفسى الى عبادتك والوقوف على أمرك

« ولو كان ولدى هنا لأمرته ان يذهب اليك ويأتينى
« بأخبارك
« ولكنى لا استطيع مغادرة بلدى لكثرة مشاغلى
« وارمان ببعد عنى مسافة لا تقل عن الف مرحلة
« اذن اسمحى لى يا سيدتى ان اكتب اليك مظهراً
« ما يكنه قلبى من العناء العظيم لمرضك
« وثقى انه اذا كان الدعاء الخالص يشفى فانك ستشفين
« قريباً باذن الله واخلاصى فى دعائى
« وان أحد اصدقائى المخلصين وهو الموسيو م. ه.
« سيزورك فأرجو ان تتفضلى بقبول زيارته فانى عهدت
« اليه بمهمة اليك انتظر نتيجتها بفارغ الصبر
« وفى الختام ارجوان تتفضلى بقبول تحياتى واخلاصى »
هذا هو الكتاب الذى تلقيته من ابيك يا ارمان
از اباك كريم شريف فحبه ايها الصديق بكل جوارحك
فان الرجال الذين يستحقون نعمة الحب قليلون فى هذا الوجود
وان هذا الكتاب الممضى بتوقيع ابيك افادنى اكثر
من تلك الاوراق التى يمضيها اطبائى

وفى هذا الصباح زارنى الموسيو م. ه. وكان يظهر انه مضطرب من تلك المهمة التى عهد اليه بها ابوك

أما هذه المهمة فهى ان اباك بعث إلىّ معه بألف ريال وقد أردت ان ارفضها غير انه اكد لى انى اذا رفضتها اكون قد اهنت أباك

ثم قال لى انه اعطاه هذه القيمة وأوصاه ان يعطينى كل ما احتاج اليه من النفقات

وقد اضطررت مكرهة الى قبول هذا المال إذ لا أعده صدقة لوروده من أبيك

واعلم يا ارمان انك حين تعود تك ستجدنى ميتة لا محالة فأرجوك أن تطلع أباك على ما كتبت اليك بشأنه

ورجائى أن تقول له أيضاً

ان تلك الفتاة المسكينة التى تدانى فكتب اليها هذا الكتاب المعزى قد ذرفت كثيراً من دمع الامتنان وانها تصلى كل يوم من أجله

الرسالة الرابعة

فى ٤ يناير

لقد مرت بى أيام لم أر أشد منها

وكنت أجهل ان الاجسام البشرية تصاب بمثل هذا العذاب أواه من لذاتى الماضية فانى أدفع اضعاف ثمنها الآن.

ولقد سهروا على كل الليل إذ لم أعد أطيق التنفس وكان السعال والهذيان يفاجئانى فى كل حين

وان قاعة المائدة فى منزلى قد امتلأت بالحلوى التى أحبها وبازهار الكاميليا والهدايا المختلفة

ولا شك انه لا يزال يوجد بين هؤلاء من يطمع أن أكون خليلته اذا قدر لى الشفاء

ولكنهم لو علموا ما أنا فيه لهربوا منى كما يهرب السليم من الاجرب ولم أجد بينهم من يسأل عنى

إن الثلوج لا تزال تنهمر وقد قال لى الطبيب انه يأذن

لى بالتنزه متى صحا الجو

الرسالة الخامسة

فى ٨ يناير

خرجت أمس فى مركبتى للنزهة وكان الطقس جميلا والغابات غاصة بالناس فكان ذلك اليوم يشبه أول التبسم من ابتسامات الربيع

وكنت أرى كل ما حولى يدل على اننى فى عيد لما كنت أحسب انى أجد أشعة الشمس ورقة الهواء ما وجدته أمس من الفرح والحلاوة والعزاء

وقد رأيت فى خلال نزهتى اكثر الذين عرفتهم وجميعهم فرحون يتسابقون فى مضمار اللهو ويتراكضون قبل الشباب فكم يوجد سعداء فى هذه الأرض وهم لا يعلمون انهم فى نعيم

ومرت بى اولمبيا فى مركبة أنيقة اهداها اليها الكونت ن . فحاولت أن تحتقرنى بنظراتها ولكنها لم تعلم كيف تفعل وكيف تصل الى غرضها السافل

أما أنا فقد أصبحت شديدة البعد عن هذا الغرور

وقد اخبنى فتى أعرفه من عهد بعيد وهو فتى كريم الاخلاق ودعانى الى العشاء معه ومع صديق له قال انه يود كثيرا أن يتعرف بى فابتسمت له ابتسامة شفت عن كل ما يخالجه صدرى من الكآبة ومددت له يدى وهى ملتهبة بالحمى فما رأيت دهشة مثل تلك الدهشة التى ظهرت فى وجهه

وعدت الى منزلى فى الساعة الرابعة فاكلت بشهية وقد شعرت ان هذه النزهة نفعتنى

هل يمكن ان اعيش ؟

ما اعجب الانسان فى ادوار حياته وتقلبات افكاره فقد راقه لى بسرور الناس ونعيمهم حتى بت راغبة فى الحياة أنا التى كنت فى الامس سجينة الحمى فى غرفتى لا أتمنى غير الموت السريع

الرسالة السادسة

فى ١٠ يناير

ان هذا الرجاء بالحياة لم يكن غير حلم فقد عدت الى ملازمة الفراش وا اسفاه

وقد امتلأ جسدى بالمراهم المختلفة وهى تحرقنى فلأعرض الآن هذا الجسم الذى طالما كان فتنة العشاق لأرى ما يكون رأيهم فيه

وعندى انه لا بد ان نكون اقترفنا ذنوبا هائلة قبل ان نخلق او اننا سنتمتع بنعيم لا يبلغ اليه الوصف بعد الموت يعادل ذلك العذاب الذى نلاقيه فى الحياة ولولا ذلك لما اذن الله ان نلقى كل هذا العذاب

الرسالة السابعة

فى ١٢ يناير

انى لا أزال اتألم وقد ارسل الكونت ن. الىّ نقوداً فأبيت قبولها

انى لا أقبل شيئاً من هذا الرجل فهو السبب الاكبر فى ابتعادك الآن عنى وكفى به سبباً

آه يا ايام بوجيفال ما أحلاك وأين انت يا ارمان

والله انى اذا خرجت حية من هذه الغرفة لأحج الى منزلنا فى بوجيفال كما يحجون الى الاماكن المقدسة

ولكنى لا اخرج منها الا الى ظلمة الضريح
ومن يعلم فقد لا استطيع ان اكتب اليك غدا

الرسالة الثامنة

فى ٢٥ يناير

هو ذا إحدى عشرة ليلة لم اذق فيها طعم الرقاد بل
اختنق من ضيق انفاسى واتوقع الموت فى كل حين
ولقد امر الطبيب ان لا يدعونى اكتب شيئاً
على ان جوليا ديبارت التى تسهر علىّ أذنت لى ان
اكتب أيضا هذه السطور
ألا تعود يا ارمان قبل ان اموت
أقضى علىّ أن يكون هذا الفراق فراق الأبد
انى أتوهم انك اذا عدت شفيت . . والسفاه وأية
فائدة بقيت لى من الشفاء

الرسالة التاسعة

فى ٢٨ يناير

لقد صحوت اليوم لضجيج سمعته فأسرعت جوليا

التى كانت تنام فى غرفتى او قاعة المائدة

وعند ذلك سمعت صوتها تناضل أصوات رجال

ثم دخلت الىّ باكية

ذلك انهم اتوا للحجز على اثاث منزلى فعملت لها

دعيهم يفعلوا ما يدعونه عدالة باسم الشرع

ودخل المنوط به الحجز الى غرفتى دون ان ينزع قبعته عن رأسه ففتح أدراجى وكتب كل ما وجده دون ان يكترث لامرأة تموت على سرير لم يدعوه لها الا من قبيل الاشفاق

وقد قال لى هذا الرجل انه يحق لى ان اعترض هذا الحجز فى خلال تسعة أيام ولكنه عين حارسا عليه

رباه ما عسى ان يكون مصيرى فان هذا الحادث قد زاد فى عانى وقد ارادت بريدانس ان تسأل صديق ابيك مساعدة مالية فما أذنت لها ان تفعل

لقد وصلنى كتابك فى هذا الصباح وكنت فى أشد الحاجة اليه ولا أدرى اذا كان يصلك جوابه فى حينه واذا كان كتب لى فى لوح المقدور أن أراك

ولكني فغفيت يوماسعيداً بسبب كتابك الذي أنساني كل ما لقيته من الشقاء في هذه الأيام الأخيرة حتى لقد خيل لي انى في خير حال بالرغم عما أجده من انقباض النفس حين أكتب هذه السطور

وبعد فان قلبي لا يزال يخامره شيء من الرجاء تولد من كتابك لا تحالة فجعلت اتوهم انى قد اعيش وانك قد تعود واني قد أرى الربيع وانك قد تحبني فنعود الى ما كنا عليه في العام الماضي

ويا لله من هذا الجنون فاني لا اكاد استطيع امساك القلم الذي اكتب لك فيه هذا الحلم فان رجائي بالحياة لا احسبه الا من قبيل الأحلام

على انه مهما حدث فاقد احببتك كثيراً يا ارمان ولولا ان يشددني تذكار هذا الحب لفارقت هذه الحياة من عهد بعيد

الرسالة العاشرة

فى ٤ فبراير

لقد عاد الكونت ج. الى باريس بعد ان فاتته خليلته وهو شديد الكآبة فقد كان يحبها كثيراً وانما زارنى ليخبرنى بما اتفق له معها

مسكين هذا الكونت فان أحواله المالية ليست كما يرجوه ومع ذلك فقد وفى عنى الدين الذى حجز بيتى من اجله واطلق سراح الحارس

وقد حدثته عنك فوعدنى انه سيحدثك عنى

ويا لله ما اكرم قلبه فقد نسيت فى خلال الحديث عنك انى كنت خليلته فكان يحاول بلطفه ان يعينى على هذا النسيان

اما الدوق فقد ارسل امس من يسأل عنى وجاءنى فى هذا الصباح فلم اعلم حين رأيته كيف انه لا يزال من الاحياء

ولقد بقى عندى ثلاث ساعات لم يلفظ فى خلالها عشرين كلمة

ورأيت دمعتين كبيرتين ذرفتا من عينيه حين رأى اصفرارى المنذر بالموت

ولا شك ان ذلك اذكره بابنته فبكاها فيكون قد رآها ماتت مرتين

وقد احدودب ظهره وتدلى رأسه الى الامام وتراخت شفتيه السفلى وخمد بريق نظراته فان العمر والاحزان باتا حملاً ثقيلاً على جسمه المنهوك

ولم يقل لى كلمة تأنيب بل كان يخال لى انه سر من تلك العلة التى تقتاتنى وانه يتباهى بنفسه معجباً من انه لا يزال يستطيع الانتقال فى حين انى مقيدة بفراش اتقلب عليه من الآلام

عادت الطبيعة الى غضبها وعاد الثلج الى الانهمار وتخلف الجميع عنى فان جوليا تسهر على قدر جهدها واصبحت بريدانس تتخذ الذرائع وتختلق الحجج للابتعاد عنى فانى لم اعد استطيع ان امدها بالمال كما كنت افعل من قبل

وقد كثر الاطباء من حولى وهم يطمأنوننى ولكن كثرتهم حولى لا تدل على شيء من الخير

اما الآن وقد اصبحت قريبة من الموت فقد بت آسفة لاصغائى وامتثالى لابيك

ولو كنت اعلم من قبل انى لا أحول بينك وبين مستقبلك اكثر من عام واحد لما اجبت أباك على رغائبه ولعشت معك هذا العام فكنت أموت على الأقل ويدى بيد صديق

ونعم انى لو بقيت وإياك لما مت هذا الموت السريع ولكن هذا الذى قدر لى فليكن ما يريده الله

الرسالة الحادية عشرة

فى ٥ فبراير

أواه يا ارمان تعال . . تعال الىّ فان آلامى لا تطاق وانى اموت

رباه ان قلبى كاد يتفطر حزناً أمس حتى لقد تمنيت لو استطعت ان اسهر خارج منزلى فى تلك الليلة التى لم

تنتهى لطولها

وقد زارنى الدوق ايضاً فى الصباح فخيل لى ان منظر هذا الدوق الذى نسيه الموت يعجل بموتى

على انى بالرغم عن الحمى التى كانت تحرقنى لبست ملابسى وذهبت الى ملعب فودفيل

وقد برجتنى جوليا وطلت وجنتى بالطلاء الأحمر كى نخفى اصفرارى ولولا ذلك لكنت اشبه بالجثث

وانى اقمت هناك فى ذلك اللوج الذى اتيت الى فيه أول مرة عرفتك

فكنت كل مدة اقامتى فى ذلك اللوج لا تفتأ عيناى شاخصتين الى كرسيك الذى كنت جالساً عليه فى القاعة تلك الليلة كأنى كنت اراك لا تزال فى مجالسك

وقد حملونى شبه ميتة الى منزلى فكنت على شر حال فى تلك الليلة واصبحت اليوم وانا لا استطيع الكلام ولا اكاد أطيق ان احرك ذراعى

رباه رباه انى على وشك الموت . . وانى أتوقع هذا الموت ولكنى لا استطيع ان اتصور بأنى سأتعذب ايضاً

اكثر مما تعذبت

الرسالة الثانية عشرة

فى ١٨ فبراير

الى الموسيو ارمان

منذ تلك الليلة التى ذهبت فيها مرغريت الى الملعب اشتدت بها العلة ولا تزال طريحة الفراش

انها لم تعد تستطيع الكتابة يا سيدى وانا جوليا ديبارت التى أسهر عليها اتولى الكتابة عنها فان كلماتها فى رسالتها الأخيرة لم تكن واضحة كما رأيت لأنها لم تكن قادرة على إتمامها بنفسها

وهى الآن لم تعد تستطيع ان تقول كلمة ولا ان تحرك عضواً من اعضائها

مسكينة إن ما عانته وما تعانيه يستحيل علىّ وصفه حتى انى لقد أصبت برعب شديد لأنى ما تعودت اذارى مثل هذه المؤثرات

وكم كنت اتمنى ان تكون بيننا فانها مصابة بالنزع

وقد عقد لسانها فاذا تمكنت بعد الجهد ان تلفظ كلمة فان هذه الكلمة لا تكون الا ارمان

وقد قال لى الطبيب ان ساعاتها معدودة ولم يبق لها شىء من الرجاء

وكان الدوق قد رأى ماصارت اليه فامتنع عن الحضور بتاتا ، متذراً بانه لا يطيق ان يرى هذا العذاب

أما بريدانس فقد نهجت اسوأ المناهج فانها كانت عائشة من فضل ، رغريت فلما رأت انه لم يبق لها فائدة منها انقطعت عن زيارتها حتى انها لم تعد تسأل عنها

وقد تخلى عنها جميع الناس وكذلك الكونت ج. فانه بعد ان ارهقه ، دائنوها بالطلب اضطر الى السفر عائداً الى لندرا

والحق انه امدنا كثيراً بالمال وفعل كل مايستطيع فعله ولكن المدائنين عادوا الى الحجز وهم ينتظرون موتها من حين الى حين ليبيعوا ما حجزوه

وقد حاولت ان أفى عنها مما لدى من المال القليل فقال لى الذى يتولى الحجز

ان ذلك لا فائدة منه فان دينها كثير وطلاب الحجز كثيرون فاذا ارضت واحداً عاد الآخرون الى الطلب وما زالت على فراش الموت فالأفضل ترك اثاثها يحجز على ان يبقى لعائلتها التي لم تكن تحبها والتي كانت تأبى ان تراها

وانك لا تستطيع يا سيدى ان تتصور شقاء هذه المنكودة وما هى عليه من الفقر فى ساعتها الأخيرة اذ لم يكن عندنا درهم امس وكل ما لديها محجوز لا يحق لها ان تبيع منه شيئاً وهى مع ذلك شاعرة بكل ما يحيط بهافتأمل مقدار عذابها

ولقد كانت دموعها تسيل على وجهها الذى اصفر ونحل حتى لم تعد تعرفه لو رأيته فتبارك ذلك الوجه الذى طالما احببته

وقد أرادت ان تكتب اليك وهى على هذه الحالة ولكنها لا تستطيع ان تحرك غير عينيها ولم يبق لديها من دلائل الحياة غير هذه النظرات وا اسفاه

فجعلت اكتب اليك أمامها . .

انها الان لم تعد ترانى وأنا اكتب اليك فقد أسدل لموت القريب برقعاً على عينيها

ولـكنها تبتسم اعلمها انى اكتب اليك ولا شك انها نناجيك وان كل روحها عندك

ومع ذلك فان عينيها تعودان إلى الحركة كل ما فتح الباب فتنظر بهما الى جهته كأنهما ترجو أن تراك. ويشرق وجهها بنور الرجاء

ثم لا يلبث ذلك النور أن ينطفىء وتعود اليها الكآبة ويسيل العرق البارد منها فتزول علائم الحياة

الرسالة الثالثة عشرة

فى ١٩ فبراير عند انتصاف الليل

ما أشد كآبتنا فى هذا اليوم يا سيدى فان مرغريت نهضت فى هذا الصباح مختنقة ففصدها الطبيب وعادت اليها قوة التكلم بضعف عظيم

وكان الطبيب قد أشار عليها بدعوة الكاهن فوافقت على ذلك وذهب الطبيب بنفسه فدعاه

وفى خلال ذلك دعتنى مرغريت إلى أن أدنو منها فامتثلت وسألتنى ان افتح خزانتها

وعند ذلك أشارت الىّ ان اخرج منها قميصاً طويلا مصنوعا كله بالدانتيلا وقالت لى بصوت خافت

انى سأموت يا جوليا بعد أن اعترف فألبسينى هذا القميص فانى أحب أن أدفن فيه

وقد بكت بكاء طويلا ثم عادت الى الحديث فقالت أود أن أتكلم فلا أستطيع لأنى أختنق . . افتحوا النوافذ فانى فى أشد الحاجة الى الهواء

فقمت الى النوافذ ففتحتها وأنا أغسلها بدموعى

وعند ذلك اقبل الكاهن وقد خشى أن لا نحسن استقباله حين عرف أين هو

فأسرعت الى استقباله بملء الحفاوة وتركته وإياها

ولما خرج من عندها قال لى

انها عاشت عيشة ضلال ولكنها ستموت موت المؤمنات

أما مرغريت فانها بعد ان صلى عليها الكاهن بدأت النزع وظهر عليها الاحتضار فأخذت الروح تحشرج فى

صدرها تلك الروح التى ستنال دون شك خير حظوة عند خالقها بعد ان عاشت قبيل موتها عيش الشهداء

ومن ذلك الحين لم تعد تفوه بكلمة ولا تأتى بحركة حتى لقد توهمت مراراً انها ماتت لو لم اكن ادنو منها فاسمع حشرجة روحها

الرسالة الرابعة عشر

فى ٢٠ فبراير

لقد قضي الأمر وأسلمت الروح وكان نزعها الاخير فى الساعة الثانية بعد انتصاف الليل

وانى لا اذكر فى ما قرأته من اخبار الشهداء ان شهيدا لقى ما لقيته هذه المنكودة من العذاب بدليل ما كنت أسمعه من صراخها الذى يقطع القلوب

وقد نهضت فوقفت فى سريرها مرتين كأنها تريد ان تغالب الموت وتمنعه عن اختطاف تلك الروح

ثم كانت تسقط فوق السرير بعد ان تذكر اسمك كأنها تستنجد بك على ما تلقاه

الى ان لفظت النفس الأخير وعادت روحها الكريمة

الى مبدأها

وعندذلك دنوت منها وناديتها فلمارأيت انهالاتجيب اطبقت عينيها وقبلت جبينها قبلة الوداع الأخير

مسكينـة يا مرغريت انى ما تمنيت ان اكون من النساء الصالحات الا لتكون قبلتى الأخيرة خير شفيع لك عند الله

ثم البستهـا ذلك القميص كما أرادت وأنرت شمعتين عند سريرها وركعت أصلى

وكان قد بقى شىء من نقودها فوزعته على الفقراء

وانى غيرضليعة فى علوم الدين ولـكنى اعتقد ان الله نظر الى دموعى الصادقـة وسمع صلواتى الحـارة ورأى صدقاتى الخالصة فسيرحم هذه الفتاة التى ماتت فى عنفوان الشباب ونضارة الجمال وليس لها من يطبق عينيها ويتولى دفنها سواى

الرسالة الخامسة عشرة

فى ٢٠ فبراير

اليوم كان موعد الدفن فجاء كثيرون من اصدقاء مرغريت الى الكنيسة

وكان بعضهم يبكون باخلاص

ولما سارت الجنازة الى مونمارتر لم يشيع جنازتها غير رجلين فقط

أحدهما الكونت ج . وقد حضر خصيصاً من لندرا لهذا الغرض الذى يدل على نبله

والآخر الدوق الذى كان يتوكأ على خادمين إذ لم يكن يستطيع المسير

وانى اكتب اليك من منزلها هذه السطور التى اخاف ان تمحوها دموعى

وما دعانى الى الاسراع لكتابة ما كتبت الا خوفى من أن تزيل الأيام من قلبي رسم هذه التذكارات المؤثرة

ولذلك كتبتها اليك فى نفس المكان الذى حدثت فيه ورجائى ان يفرغ الله على قلبك نعمة "الصبر الجميل وان تنسيك الأيام تلك الفتاة التى ما أحبت سواك. ولم تلفظ! عند احتضارها غير كلمة ارمان

٢٦

قال راوى هذا الكتاب انى بعد ما فرغت من قراءة هذه الرسائل التفت الى ارمان وقلت له

لقد علمت الآن كل ما قاسيته أيها الصديق اذا كان كل ما قرأته فى هذه الرسائل اكيدا

قال لقد أثبته لى ابى فلم يبق مجال للريب فيه

وأقمنا نتحدث هنيهة بعجائب الأقدار ثم تركته وانصرفت عائدا الى منزلى

اما ارمان فانه كان لا يزال كئيباً فلما تماثل ذهبت وإياه لزيارة بريدانس وجوليا ديبارت

فعلمنا من أخبار بريدانس انها افلست وقالت لنا ان مرغريت كانت السبب فى افلاسها فانها استدانت لها

كثيرا من المال فى خلال مرضها دون ان ترد لها شيئا

فلما أدركتها الوفاة ألح الدائنون لى بريدانس وهى لا تستطيع الوفاء فأشهروا إفلاسها

وانها لم تكن تستطيع قبض مالها من التركة لأن مرغريت لم تعطها وصولات بما قبضته منها

فكان من نتائج هذه الحكاية الملفقة ان ارمان منحها الف فرنك وهو يعتقد كل الاعتقاد انها لم تصدق بحرف مما كانت ترويه

ثم ذهبنا الى جوليا ديبارت فقصت علينا كل ماحدث لمرغريت بالتفصيل وهى تبكى بكاء صادقا يدل على حقيقة اخلاصها لصديقتها

ثم ذهبنا من عندها الى ضريح مرغريت فزرناه ولم يبق على ارمان غير واجب واحد يقضيه وهو زيارة أبيه

وقد ألح علىّ أن أصحبه فى هذه الزيارة فامتثلت واستقبلنا أبوه بملء الحفاوة ورأيت من نبله وكرم اخلاقه فوق ما كنت أتصوره وعلمت لأول وهلة ان حبه لولده لا يحيط به وصف ولا يحصره بيان

أما ابنته وهى تدعى بلانش فقد كان سرورها عظيما بلقاء أخيها فأقمت بين هــذه العائلة الكريمة ثم عدت الى باريس فكتبت هذه الحكاية التى اعظم ما فيها انها حقيقة ثابتة لا ريب فيها

ولا أستنتج مما رويته ان جميع الفتيات اللواتى على شاكلة مرغريت جديرات بأن يفعلن ما فعلته

بل كل ما أقوله ان واحدة منهن أحبت حباً صادقا وبذلت حياتها فى سبيل من تحب

ان حكاية مرغريت نادرة شاذة لا يقاس عليها ولذلك كتبتهـا فلو كانت من الأمور المألوفة لمـا تكلفت عناء كتابتها ولما تجشمت فى قصها هذا العناء

تمت الرواية

